الفصل الثالث

إشراق الوعي .. وتاريخ الغياب

المبحث الأول : ثامنة السبع الشداد

1. رمزية الأغراض بين الحضور والغياب .
2. البنية الرمزية للممدوح / النموذج .
3. رمزية الأسماء .
4. الممدوح المشكل .
5. الرحلة إلى الممدوح .

المبحث الثاني : الغـوابــر

1. البنية الرمزية للدرع .
2. مظاهر أزمة الروح .
3. الأزمة واللغة .

المبحث الأول
ثامنة السبع الشداد

1. رمزية الأغراض بين الحضور والغياب :

إن الأغراض في الشعر موضوع شائك تعرض له غير واحد من الباحثين، وبين أنه ليس على ظاهره ، وإنما هو شكل فني ، وإطار يتخذ بوصفه تقليداً فنياً يخفي وراءه سراً وعجباً . من هؤلاء الدكتور مصطفى ناصف في معظم كتبه وإشاراته المتناثرة[1]، لا سيما حديثه عن (معجز أحمد) أو المشكل أو التفرد والتوحد ..وفكرة البطولة في الشعر العربي في قراءته لكل من المتنبي وأبي العلاء وعبد القاهر الجرجاني في الأسرار والدلائل ، فيقول : "هناك سر في شعر كثير سمي باسم المدح"[2] ، وكذلك يقول عن فكرة المقاومة والتضاد أو الاختلاف وعلاقتها بشعر المدح وإثارة الإشكال : "هناك الحاجة المستمرة إلى شيء يشبه أن يكون أمراً من علٍ يتعمق العقل العربي . هناك الاتقاء والرفض ، والتقنع بقناع المدح من أجل أن نغني أغنية ماكرة ساذجة خطرة موحشة "[3] . ويقول : " إننا ننادي أنفسنا ، ونخلع كثيراً من ثيابنا ، وعاداتنا ، نريد أن نمثل دور القادرين في بعض اللحظات ، حتى ننسى متاعب وآلاماً وصغاراً غير قليل .. إن المديح إثبات، ولكن مقدار الإثبات في مثل هذا الشعر ليس كثيراً .إن حدة الإثبات الظاهرة لا تخلو من هذا النفي . هناك (حرب) مستمرة في داخل العقل العربي .. هناك رفض لكثير من جوانب الحياة ، والترف والمال والسلطة ، هناك إحساس غريب بأن الحياة (سقام) .

---

(1) وكذلك الدكتور وهب رومية في تساؤله : أغراض أم رموز ؟ راجع :شعرنا القديم والنقد الجديد ، ص 139وما بعدها.

(2) د.مصطفى ناصف : النقد العربي نحو نظرية ثانية ، ص 92 .

(3) المرجع السابق : ص 110 .

فأين العافية ؟ "[1] هذا هو سؤال المديح ، أين العافية ؟ أين الوعي المشرق ؟ أين .. ؟ المديح – إذن – هو زلزلة السكون وهز النفوس وإيقاظها . المديح بحث شاق ومساءلة وريب ومغامرة وجود . المديح بعث جديد ومحاولة لإعادة الحياة إلى الحياة ، وعثور الإنسان على حقيقة ذاته . في المديح حركة روحية عميقة تكشف عما يكتنف العقل من فقد وأزمة وعما ينطوي عليه من هموم وثورة وآمال .

وبدايةً لا بد من الإشارة إلى أن مديح أبي العلاء – في سقط الزند – استراتيجية فنية ذات ظاهر وباطن رمزي ، متفاعلين ، شأنه شأن تقاليد فنية أخرى، ولا غرو فما اهتم أبو العلاء بشيء في خطبة الديوان قدر اهتمامه بتحرير فكرة المديح تلك ، وكأنها فكرة جوهرية في السقط ؛ فهي تضم قصائد المدح وما يدعى بالتهنئة بأشكالها ، وهي تغطي مساحة كبيرة من الديوان ، إلى جانب بعض القصائد في الرثاء ، وقصائد أخرى في غير غرض محدد .

ويعنون أبو العلاء قصائده حسب خطة رمزية ، وتشكل رؤيته الفنية في تلك القصائد ظاهراً يتلهى به ، وباطناً يرمي إليه ويشكله ويتسق مع الظاهر في مواضع ويختلف عنه في أخرى ؛ وهذا ما يدفعني إلى القول بأن ثمة باطنا ؛ لأن القصيدة لا تتسق ولا تثرى إلا في ظل ذلك الباطن ؛ فتتفاعل رموزها ومكوناتها . فهناك رؤية صلبة تستند إليها وحدة القصيدة وتؤسس لها في الوقت ذاته . وهو ما أحاول في هذه السطور أن أكشف عنه .

ولكن لماذا تلك الثنائية ؟ حينئذٍ نحتاج إلى إعادة القول عن مفهوم الرمزي ذي الوجهين ، الذي لا ينفك أحدهما عن الآخر ، واستراتيجية عمل اللغة الشعرية ونشاطها الذي يتشكل في إطار شيء أكبر منهما معاً .

---

(1) المرجع السابق : ص 109 .

2. البنية الرمزية للممدوح / النموذج :

لنستعرض أهم ملامح الممدوح / الرمز في هذه السطور . ولنبدأ بعلة التوجه إلى المدح ، وهي (حب) الممدوح بل فرط حبه ، فالتوجه في الأصل يقوم على الحب والرغبة في الاتصال أو الاتحاد به . يقول :[1]

48- ولولا فرط حبك ما ازدهاني إلى المدح الطريف ولا التلاد

فرط الحب هو الدافع إلى المدح . كان التغرب والبعاد حباً وسمواً ، وكانت الرحلة حباً وتطهراً وبحثاً عن النور وعودة إلى البدايات ونبشاً في الأعماق .

يقول :[2]

69- علي لأملاك البلاد نصيحة يقوم بها ذو حسبة في قيامه
70- أخص بها من كل حي عميده وأصرفها مستكبرا عن طغامه
71- بأن عليا كل من فاز بالغنى فقير إذا لم يدخر من كلامه
72- سننت لأرباب القريض امتداحه كما سن إبراهيم حج مقامه[3]
73- فيثني عليه ضيغم بزئيره ويثني عليه شادن ببغامه

من (علي) ومن الإمام ؟ من الذي استحق فرط الحب والثناء ؟ وما علاقة ذلك بقوله : (مدحت فيه ذاتي) وما علاقة الكلام بالدر ، والطاعة بالعقوق وعميد الحي بالطغام بأهل النطق ؟ ما علاقة ذلك بالإنسان وأشواقه وآماله وآلامه ؟

---

(1) شروح سقط الزند : 1 / 324 .

(2) المرجع السابق : 2 / 516 .

(3) يقول المتنبي : (معجز أحمد : 1/ 223) .

- لجا امرؤ يابن يحيى كنت بغيته وخاب ركب ركاب لم يؤموكا
- أحييت للشعراء الشعر فامتدحوا جميع من مدحوه بالذي فيكا
- وعلموا الناس منك المجد واقتدروا على دقيق المعاني من معانيكا
- فكن كما شئت يا من لا شبيه له وكيف شئت في خلق يدانيكا

يقـول:[1]

4- وليس بجـاز حق شكرك منعـم ولـو جعـل الـدنيا قضـاء ذمامـه

5- فلا تلزمني من مديحـك منطقا يقصر فكري عـن بلـوغ التزامـه

من الكلام وأهل النطق إلى المنطق والفكر ، المثال لا يبلغ ، ولا يستطيع الشـاعر أن يوفي كل حقوقه ، ما دلالة التقصير بالالتزام في ظل علاقة الشاعر بالممدوح ؟ ربمـا كـان من ملامح الممدوح البارزة علاقته بالفكر والنطق والفهم والكلام والدر وكذلك بالسيف ترجمان المنايا .

يقـول :[2]

49- شققت البحر من أدب وفهـم وغـرق فكـرك الفكـر الطموحـا

50- لعبـت بسحـرنا والشعـر سـحر فتبنـا منـه توبتـنا النصـوحا

51- فلو صح التناسخ كنت موسى وكـان أبـوك إسحـاق الـذبيحا

60- ياغيث فهم ذوي الأفهام إن سدرت بلى فمرآك يشفيها من السدر[3]

26- إذا تفكر أهل الرأي واجتهدوا فضل كل هداه غـير مفتكـر[4]

12- رأيتك واحدا أبرحـت عزمـا ومثلك من رأى الرأي النجيحا[5]

هل ثمة علاقة بين فكرة الحرب والصراع الفكري ؟ هل تأخذ الحرب طابع الصراع الفكري في ظل علاقتها بالدم والخلاص والتطهر ؟ ألا يمتزج النور بالدم والتضحية ؟ ما دلالة التوحد أو التفرد والعزم وما علاقة ذلك بأهل الرأي والهدى والضلال ؟

---

(1) شروح سقط الزند : : 2 / 475 . يقول المتنبي : (معجز أحمد : 2 / 39) .

- خذ من ثناي عليك ما أسطيعه لا تلزمني في الثناء الواجبـا

(2) شروح سقط الزند : 1 / 275 .

(3) المرجع السابق : 1 / 163 .

(4) المرجع السابق : 1 / 138 .

(5) المرجع السابق : 1 / 248 .

19- ويطلب منك ما هو فيك طبع ومطلوب من اللسن البيان[1]

60- يعبر سيفه لفظ المنايا كما شرح الكلام الترجمان

ما علاقة الطبع بالبيان ؟ وهل البيان هو ما يطلب من الممدوح ؟ وهل لذلك علاقة بجوده ؟ هل يكون الجود بالبيان والهدى والنور كما كان الطلب ؟ ألا يستحق ذلك الممدوح التمجيد ؟ أليس الهناء لنا جميعاً ؟ يقول : [2]

4- هنيئا لأهل العصر برء محمد وإن كان منهم جاهل وعليم

ويبتهل فيقول :[3]

62- عش فداء لوجهك القمران فهما في سناه مستصغران

55- فكن في الملك يا خير البرايا سليمانا وكن في العمر نوحا[4]

27- عشت حتى يعود أمس لعلمي أنه لا يعود بعد المرور[5]

28- فادعاء الملوك غيرك إدرا ك المعالي دعوى شقاق وزور

12- درة من ذراك تسكن بحرا وكذا الدر ساكن في البحور[6]

13- أنت شمس الضحى فمنك يفيد الصـ ـبح ما فيه من ضياء ونور

الرحلة إلى الممدوح شاقة وعسيرة ، والعثور على الدر بعيد المنال ودونه لجة وأهوال . يحتاج العثور على الدرة إلى مغامرة الغوص في البحر والنفس والممدوح جميعاً ، كما كانت الرحلة مغامرة لدخول الفلاة والوصول إلى الممدوح، الرحلة ضرب من المغامرة والبحث عن الخلاص والتطهر .. بحث عن الدر في أعماق البحر ، ومكابدة الأهوال في

---

(1) شروح سقط الزند: 1 / 185 .

(2) المرجع السابق : 2 / 664 .

(3) المرجع السابق: 1 / 467 .

(4) المرجع السابق : 1 / 280 .

(5) المرجع السابق : 1 / 236 .

(6) المرجع السابق : 1 / 229 .

سبيل النموذج ، النموذج بدر في الظلام وهو شمس النهار ، ويكثر ارتباطه بالشمس . يقول :

13- وقد حلفت أن تسأل الشمس حاجة وإن سألتك اليسر برت يمينها[1]

52- ويوشع رد يوحا بعض يوم وأنت متى سفرت رددت يوحا[2]

فالقصيدة تبحث عن إسفار طلعته وإشراق شمسه . يقول :

5- زفت إلى دارك شمس الضحى وحولها من شمع أنجم[3]

6- مثل شيات في قميص الدجى زين بهن الفرس الأدهم

7- تخفى ولا تظهر إلا إذا منزلك الأعظم

8- كأنها سر الإله الذي عندك دون الناس يستكتم

علاقة الممدوح بالشمس سر . وكذلك علاقة الدر بالبحر ، وغاية الرحلة بالمفازة ، والخفاء بالظهور ، لا شيء من دون الصراع ومكابدة مشقة الوعي . ثمة رابطة لا انفصام لها بين الوعي والنور والدم ،كذلك المكارم والمعاني من الملامح الأساسية للممدوح ، فهو مثال الكمال ويمينها ولسانها ، وعليه لكل مكرمة ضمان . يقول :[4]

66- ستفديك المكارم راضيات وما منها بفديتك امتنان

67- إذا صالت فأنت لها يمين وإن نطقت فأنت لها لسان

يكشف الممدوح عن رغبة عميقة في السمو والكمال ، والانتصار على عقبات كثيرة وهو كذلك في أحد وجوهه ربما عبر عن مجاهدة واتقاء لأشياء كثيرة، لعل الممدوح نفسه

---

(1) شروح سقط الزند : 2 / 897 .

(2) المرجع السابق : 1 / 278 .

(3) المرجع السابق : 2 / 846 .

(4) المرجع السابق: 1 / 223 .

يشكل ركناً أساسياً في تلك المجاهدة بالريب في حقيقة الموقف الإنساني ، من خلال الجدل بين الرغب والرهب الخفي أو الباطني ، بين الإثبات والنفي ، ومن خلال القلق والتوتر بين الارتحال والعودة . ومن خلال إشراق الوعي ومشقته .

الممدوح مناط الحديث عن أعماق غائرة ، تلتبس فيها الأحلام والآمال بالآلام والفقد بالوجد ، والحضور بالغياب ، النموذج قلق عميق ، وثورة عارمة تجتاح عقل الشاعر . يجسد النموذج حركة الروح أشرق وعيها ؛ فرأت الحقيقة والوجود الإنسانيين مفعمين بالتناقض والجدل . والقصيدة تبحث عن الغياب إذ تتوجه إلى النموذج وتشكله ، فربما كانت الرحلة إلى الممدوح محاولة لسبر أغوار ذلك الغياب، فقسوة الرحلة ومشقتها هي مشقة الوعي بالغاية . الرحلة شوق ومجاهدة ، رغبة ورهبة وحذر واتقاء . يقول : [1]

18- ظل للناس يوم عقدك هذا الـ ـأمرعيد سموه عيد السرور
19- إن يكن عيدهم بغير هلال فالهلال المضيء وجه الأمير
20- راقهم منظرا وهابوه خوفا فهو ملء العيون ملء الصدور

ويقول :

61- تهاب الأعادي بأسه وهو ساكن كما هيب مس الجمر قبل اضطرامه[2]
55- كلا كفيك في سلم وحرب يكون الخوف منها والأمان[3]

ويعد الجود من القيم الأساسية التي تشكل ركناً بارزاً في بنية الممدوح/ النموذج فهو – من قديم – بحر ، وينطوي البحر كذلك على الأوجه المتناقضة ، ففيه الدر والمرجان ، فهو خصب ، ولكنه كذلك الخطر . البحر عطاء بيد أن العطاء ذو طبيعة خاصة فالبحر قوة مخيفة ولا ينفصل العطاء عما يصحبه من الخطر والحذر ، ثمة ريب في العطاء من هذا الوجه .

---

(1) شروح سقط الزند: 1 / 231 .
(2) المرجع السابق : 2 / 511 .
(3) المرجع السابق : 1 / 216 .

يقـــول:[1]

6- وللحسن الحسنى فإن جاد غيره فـذلك فعـل ليـس بالمتعمـد

9- وقد يجتدي فضل الغمام وإنما من البحر فيما يزعم الناس يجتـدي

11- فيا أحلم السادات من غير ذلة ويا أجود الأجواد من غير موعد

الممدوح بعطائه إثراء للحياة ، وبعث لها ، بيد أنه كذلك - وتلك لحظات الـوعي - ليس عطاءً خالصاً . يقول : [2]

63- ويعدم عنده في الجود مطل ومـعدوم مـع العتـق الحـران

بين الجود والمطل جدل . بين ما يرجى وما يتقى . بين الجـود والذلـة ، بـين الجـود والثناء :

5- ولـن يحـوى الثـناء بغير جـود وهل يجنى من اليبس الثمار[3]

36- لا يكـذب المقسـم في قـولـه إن الغنـى مـن يـده يقـسـم[4]

ولكنه كذلك لا يفتأ يتساءل : [5]

1- أعن وخـد القـلاص كشفت حـالا ومـن عنـد الظـلام طلبـت مـالا

2- ودرا خلـــت أنجـــمه عليـــه فهـــلا خلـــتهن بـــه ذبـــالا

3- وقلـت الشمـس بالبـيداء تبـر ومثلـك مـن تخيـل ثـم خـالا

4- وفي ذوب اللجيـن طمعـت لمـا رأيـت سرابهـا يغشـى الرمـالا

5- رمـاك الله مـن نـوق بـروق مـن السنـوات تثكـلك الإفـالا

6- فقـد أكثـرت رحلتنـا وكانـت صـغار الشـهب أسرعهـا انتقـالا

7- تـذكـرك الثـويـة مـن ثـدى ضـلال مـا أردت بـه ضـلالا

---

(1) شروح سقط الزند : 1 / 352 .

(2) المرجع السابق: 1 / 221 .

(3) المرجع السابق : 2 / 813 .

(4) المرجع السابق : 2 / 865 .

(5) المرجع السابق : 1 / 25 .

ما علاقة الدر والتبر والشمس بالبيداء والسراب ؟ وما دلالة (الكشف) و(الظلام) و(ضلال ما أردت به ضلالا) ؟! ما علاقة الضلال بالرحلة ؟

يقول :[1]

24- القاتل المحل إذ تبدو السماء لنا كأنها من نجيع الجدب في أزر
25- وقاسم الجود في عال ومنخفض كقسمة الغيث بين النجم والشجر
28- يبين بالبشر عن إحسان مصطنع كالسيف دل على التأثير بالأثر
29- فلا يغرنك بشر من سواه بدا ولو أنار فكم نور بلا ثمر[2]

النجيع مكون أساسي من مكونات مغامرة الوعي أو مغامرة الوجود . (كأنها من نجيع الجدب في أزر) كذلك النور . فهل تبحث القصيدة عن نور ذي ثمر . وليس تجنى منه الثمار ؟

يقول :[3]

8- إذا ما طريد العصم وافى حضيضه تبوأ فيه واثقا باعتصامه
9- منازل لو رد الحمام بعزة لما ربع من يحتلها من حمامه
10- غمامان مبيضان منذ براهما لنا الله لم نحفل بسود غمامه
11- كأنك حوض المزن طأطأ نفسه إلى ورده حتى ارتوى من سجامه
12- كأنك در البحر أصبح طافيا على الماء فاعتام الورى من تؤامه
13- كأنك ركن البيت أعطى قدرة فسار إلى زواره لاستلامه
14- أفدت جزيل المال لما استفدته وحكمت فيه الدهر قبل احتكامه
15- ولو نال ذو القرنين ما نلت من غنى بنى السد من ذوب النضار وسامه

---

(1) شروح سقط الزند : 1 / 136 .

(2) يقول المتنبي : (معجز أحمد : 1 / 237)

- ما ذا البهاء ولا ذا النور من بشر ولا السماح الذي فيه سماح يد

(3) شروح سقط الزند : 2 / 477 .

16- وهل يدخر الضرغام قوتا ليومه إذا ادخر النمل الطعام لعامه

17- وكم بلد فارقته متلهفا عليك غداة البين قلب همامه

(كأنك) هي باب الدخول (كأنك حوض المزن طاطأ نفسه .. حتى..) و(كأنك در البحر أصبح طافيا..فاعتام..) و(كأنك ركن البيت أعطى قدرة .. فسار..) لم يعد الحوض عزيزا على ورده ، بل طاطأ نفسه وارتوى الورد ! لم يصبح الدر في الأعماق بل أصبح طافياً في متناول اليد ! كذلك تحول ركن البيت وأعطي قدرة فأصبح يسير إلى زواره بدلاً من أن يسيروا إليه ! ثمة امتناع ، على الرغم من ذلك الانسياب البادي ، وذلك اليسر وتلك السهولة في الحصول اليسير على الماء والدر ، فماذا يعني تغييب الجهد الإنساني في الحصول على الماء ومكابدة الأهوال بحثاً عن الدر ؟ ماذا يعني تغيب الوعي ومشقته ؟ وما علاقة ذلك اليسر بـ (طريد العصم) و(الحضيض) و(الاعتصام) ورد (الحمام بعزة) ؟! مرة أخرى ما دلالة (لو) في (لو رد الحمام بعزة) ؟ ما دلالة الرد والاتقاء (بعزة) في علاقتها (بالحمام) والامتناع في (لو) و(حكمت) بقول الخوارزمي : (مدار تركيب الحاء والكاف والميم على المنع) ؟

لماذا كان البدد وجهاً أساسياً من وجوه الجود ؟! وما علاقته بالدهر ؟ وما دلالة دخول ذي القرنين في هذا السياق ؟ ما الذي فقد واستدعى (لو) ؟ ما الذي لو وجد اعتصم الإنسان وبنى السد ؟! ما الذي لا يقوى الإنسان على الاحتماء منه أو الحيلولة دونه ؟!

يقول :[1]

1- سالم أعدائك مستسلم والعيش موت لهم مرغم

2- بقطرة غرق أعاديك لا ينقص منها بحرك المفعم

3- فليس عن نصرك مستأخر ولا إلى حربك مستقدم

4- ليهنك المجد الذي بيته فوق سراة النجم لا يهدم

(1) شروح سقط الزند : 2 / 844 .

لماذا الاستسلام ؟ وكيف أصبح العيش موتاً مرغماً ؟ ما هذا النفي القاسي (فليس .. ولا ..) ؟ لماذا التغييب التام للأعداء ؟ ثمة نصر ولا حرب ، فماذا هنالك؟ لماذا أجهضت الحرب وتلاشى الصراع ؟ هل لدلالة تلاشي العدو علاقة بمكانة النموذج ؟ هل النموذج بمبعدة عن ذلك الجمود وتلاشي الوعي والحرب ؟ ما وجه التهتة بالمجد ؟ يقول في القصيدة نفسها :

29- فقل لمن يغتال ترب العلا الترب خير لك لو تعلم
30- ما أنت في عدة من يتقى بل أنت في عدة من يرحم
31- والقوم كالأنعام إن عوتبوا تسمع ما قيل ولا تفهم

ما علاقة القوم بالأعداء ؟ وما علاقة (تِرْب العلا) بـ (التُرب) ؟ ألا يعد وجود النموذج مرتبطاً – بوجه ما – بوجود الأعداء ؟ ليس ثمة من يتقيه النموذج . فهل يعد ذلك تجميداً لفروسيته ؟ هل بين النموذج والقوم علاقة ما ؟ هل يستمد النموذج وجوده وقوته من القوم ؟!

يقول :[1]

65- علوتم فتواضعتم على ثقة لما تواضع أقوام على غرر
66- والحمد والكبر ضدان اتفاقهما مثل اتفاق فتاء السن والكبر
67- يجنى تزايد هذا من تناقص ذا والليل إن طال غال اليوم بالقصر
68- خف الورى وأقرتكم حلومكم والجمر يعدم فيه خفة الشرر

في الأبيات حركة موارة قلقة بين الأضداد ، الصراع بين العلو والتواضع ، الحمد والكبر ، الزيادة والنقصان . حركة تكشف عن حلوم كالجمر اضطراما بلا شرر . يقول :[2]

8- من قال إن النيرات عوامل فبضد ذلك في علاك يقول
9- يعملن فيما دونهن بزعمه ولهن دونك مطلع وأفول

---

(1) شروح سقط الزند : 1 / 167 .

(2) شروح سقط الزند: 2 / 871 .

علا الممدوح لا تعمل فيه النيرات العوامل ، فلا يخضع لتأثيرها ، بل لمن دونه مطلع وأفول . النموذج الممدوح لا يجارى ولا يتقى ، يسود ولا يساد ، ويؤثر ودونه تأثير الكواكب ، فليس لها عليه من سيادة . يقول : [1]

43- ركبت العاصفات فما تجارى وسدت العالمين فما تساد

الممدوح / النموذج في أكثر قصائد السقط فارس مغوار وفروسيته جانب مهم في الرؤية العلائية . يقول :[2]

6- المتقي بالخيل كل عظيمة والمستبيح بهن كل عرمرم

16- يجمعن أنفسهن كي يبلغن ما يهوى فمجفرهن مثل الأهضم

11- مكلف خيله قنص الأعادي وجاعل غابه الأسل الطوالا[3]

17- ترى أعطافها ترمي حميما كأجنحة البزاة رمت نسالا

النموذج ذو علاقة وطيدة بكل ما يتصل به من فرس وسيف ورمح ودرع.. وكلها رموز تعبر عن المشكل وتبنينه . يقول :[4]

13- إلام تكلف البيد المطايا بعزم لا يَقِرُّ له قرار

14- وخيلا لو جرت والريح شأوا ظننا الريح أوثقها إسار

15- غدت ولها حجول من لجين وراحت وهي من علق نضار

ربما كان العزم هو الجامع بين كثير من جوانب المشكل ، لا سيما فروسيته وما يتعلق بها من فرس وسيف ورمح ...،الممدوح النموذج يحارب الليل والظلام ؛ ومن ثم كانت درعه من النجوم . يقول :[5]

---

(1) شروح سقط الزند: 1 / 320 .

(2) المرجع السابق : 1 / 330 .

(3) المرجع السابق : 1 / 42 .

(4) المرجع السابق : 2 / 817 .

(5) المرجع السابق : 1 / 212 .

49- كـأن الليـل حاربهـا ففـيه هـلال مثـل مـا انعطـف السنـان

50- ومـن أم النـجـوم علـيـه درع يحـاذر أن يمزقهـا الطعـان

فهو ذو درع تحميه وسيف يبلغه ما يرجوه ورماح ونبال وقسي . يقول [1]

29- وخلة الضرب لا تبقي له خللا وحلة الحرب ذات السرد والحلق

الحرب هي أساس وجود الفارس / المشكل ، وفروسيته ؛ ولذا كان هذا المحور من أهم المحاور الشائعة في السقط ، فلوحة الحرب من اللوحات التي يوليها أبو العلاء عنايته .

إن كل ما سبق من صفات الممدوح يجعل منه نموذجاً ، يؤهله لصنع المجد . يقول : [2]

22- ويكنى باسمه عن كل مجد وكل اسم كنايته فلان

57- قالت عداتك ليس المجد مكتسبا مقالة الهجن ليس السبق بالحضر[3]

58- رأوك بالعين فاستغوتهم ظنن ولم يروك بفكر صادق الخبر

59- والنجم تستصغر الأبصار صورته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

يؤكد الشاعر أن المجد مكتسب وليس قدراً يلح على ذلك في أكثر من موضع.

26- فيابن محمد والمجد رزق بقدرك سدت لا قدر أتيحا[4]

فالمجد همة وعزم إنسانيين ؛ فقد كانت الخيل (تكاد .. تغني عن الأقدار صونا وابتذالا) .

ما زال النموذج يشكل حلما ورغبة في العلو والتجاوز . يقول :

1- إليك تناهى كلُّ فخرٍ وسودَدٍ فأبلِ الليالي والأنامَ وجددِ[5]

2- لجدك كان المجد ثم حويته ولابْنِكَ يُبنى منهُ أشرفُ مَقعدِ

---

(1) شروح سقط الزند : 2 / 686 .

(2) المرجع السابق : 1 / 220 .

(3) المرجع السابق : 1 / 161 .

(4) المرجع السابق : 1 / 259 .

(5) المرجع السابق: 1 / 350 .

3- ثلاثة أيام هي الدهر كله وما هن غير الأمس واليوم والغد

4- وما البدر إلا واحد غير أنه يغيب ويأتي بالضياء المجدد

5- فلا تحسب الأقمار خلق كثيرة فجملتها من نير متردد

6- وللحسن الحسنى فإن جاد غيره فذلك فعل ليس بالمتعمد

7- له الجوهر الساري يؤمم شخصه يجوب إليه محتدا بعد محتد

8- أأخمل والنباهة في لفظ وأقتر والقناعة لي عتاد [1]

9- وألقى الموت لم تخد المطايا بحاجاتي ولم تجف الجياد

10- ولو قيل اسألوا شرفا لقلنا يعيش لنا الأمير ولا نزاد

14- بنى من جوهر العلياء بيتا كأن النيرات له عماد

15- إذا شمس الضحى نظرت إليه أقرت أن حلتها حداد

16- فلولا الله قال الناس أضحت ثمانية به السبع الشداد

49- وقد علمت هذي البسيطة أنها تراثك فلتشرف بذاك وتزدد [2]

50- وإن شئت فازعم أن فوق ظهرها عبيدك واستشهد إلهك يشهد

51- وذكرك يذكي الشوق في كل خاطر ولو أنه في قلب صماء جلمد

ربما لا ينفصل مجد النموذج / المشكل عن حركة الزمان كما لا ينفصل عن (الأمير) الغاية ، والتعلق بثامنة السبع الشداد . الأرض واحدة وأنت الأوحد ! ما دلالة (الذكر) و(الشوق) بحلم الإنسان المستحيل ؟ وما علاقة الزعم بالمشيئة بالعبيد بالإله بهذا السياق ؟! كان المشكل – إذن – تجسيداً لرغبات دفينة ، ربما كانت الرحلة رغبة في التحرر أو التطهر منها .

42- أعاذ مجدك عبد الله خالقه من أعين الشهب لا من أعين البشر [3]

---

(1) شروح سقط الزند: 1 / 287 .

(2) المرجع السابق : 1 / 387 .

(3) المرجع السابق : 1 / 150 .

43- فالعين يسلم منها ما رأت فنبت عنه وتلحق ما تهوى من الصور
44- وكم فريسة ضرغام ظفرت بها فحزتها وهي بين الناب والظفر

مجد عبد الله – إذن – ليس مما تهوى أعين البشر ، وإنما هو مما تراه فتنبو عنه . ومن ثم يعيذ مجده من أعين الشهب والكواكب . ألا يتحاور ذلك (المشكل) مع (ساهر البرق) ذلك السحاب يراد منه أن يسقي الشجر ويوقظه بالاخضرار والإيراق[1] – بعبارة التبريزي – فيحييه بعد موته ، فهو من بني مطر ومن جنس المواطر . فإن بخل ذلك السحاب على (الأحياء كلهم) فليسق (حيا من بني مطر) . فإليه ظمأ وشوق ، فقد بات الملجأ والخلاص . ولذا فإن الشاعر يشتاق إليه[2] !

65- علوتم فتواضعتم على ثقة لما تواضع أقوام على غرر
66- والحمد والكبر ضدان اتفاقهما مثل اتفاق فتاء السن والكبر
67- يجني تزايد هذا من تناقص ذا والليل إن طال غال اليوم بالقصر
68- خف الورى و أقرتكم حلومكم والجمر يعدم فيه خفة الشرر
69- وأنت من لو رأى الإنسان طلعته في النوم لم يمس من خطب على خطر
70- وعبد غيرك مضرور بخدمته كالغمد يبليه صون الصارم الذكر
71- لولا قدومك قبل النحر أخره إلى قدومك أهل النفع والضرر
72- سافرت عنا فظل الناس كلهم يراقبون إياب العيد من سفر
73- لو غبت شهرك موصولا بتابعه وأبت لا نتقل الأضحى إلى صفر
74- فاسعد بمجد ويوم إذ سلمت لنا فما يزيد على أيامنا الأخر
75- ولا تزل لك أزمان ممتعة بالآل والحال والعلياء والعمر

---

(1) شروح سقط الزند : 1 / 115 ، وقال في مقدمة السقط : "ومد العمر فكأنما سنوه السمر ، ويعدم عنده الثمر" (الشروح : 1 / 5) .

(2) المرجع السابق : 1 / 167 .

3. رمزية الأسماء

ومن رمزية المديح إلى رمزية الأسماء ، أقصد أسماء الممدوحين مثل : (علي) و(سعيد) و(أبو الفضائل) و(أبو الرضا) و(الشريف) ، والمهم في هذا الموضوع هو أن ما للأسماء من رمزية لا يتكون بمعزل عن القصيدة وحركتها الداخلية ، فهي أسماء موظفة ، وأبو العلاء – وغيره – عندما يمدح (أميراً) فالأمير ليس له من القصيدة غير اسمه ، الذي ربما يحذف هو الآخر إن لم يتحول إلى إشارة فنية تندمج في البناء الرمزي للمدح وتثريه ، ولعل ذلك هو أحد أسباب حذف أسماء بعض ممدوحيه أو تجريدهم (في خطبة السقط) مما جاء في المدح من صفات ، وإلحاقه بالذات الإلهية ، ألا يدعونا ذلك إلى مراجعة موقف أبي العلاء – والشعراء عموماً – من شعر المدح في ضوء تلك الإشارة الذكية التي تلحق الصفات بالمطلق تارةً وبالإنسان تارةً أخرى في قوله (مدحت فيه ذاتي) ؟!

كذلك فإنه عندما يؤطر القصيدة بموقف ما فإنه يحدد سياقاً متسقاً مع الظاهر والباطن معاً ، إذ يكشف عن علاقات رمزية عميقة ومتماسكة ، فمثلاً جاء في عدة قصائد أن (المناسبة) أو (أسباب) كتابة القصيدة هي التهنئة بعرس أو بعروس ، والأمر بعد ذلك ذو باطن رمزي تتكشف عنه القصيدة ، فالهيكل الخارجي لعلاقات الأطراف داخل القصيدة لا يعدو أن يكون حيلة فنية مقصودة ، وتقليداً فنياً متبعاً ظاهراً [1] .

فالأمير الممدوح يتشكل بوصفه نموذجاً ومثالاً متحرراً من الواقع وخارجاً عن الزمان والمكان ، وهو فارس يمتلك مقومات الحياة والموت معاً ، فهو سعيد وعلي وشريف وذو فضائل ، وهو علوي السجايا ذو مجد وشرف وطهر وتقى .. كريم حليم شجاع قادر .. وهو بذلك قادر على إلحاق الهزيمة والخوف والرعب .. بقلوب أعدائه ، بل قادر على موتهم .

يكاد يتحد الممدوح / البطل بالمطلق ، فبيده الحياة والموت . الممدوح هو شمس

---

(1) راجع على سبيل المثال القصائد : (36 – 64 – 65 – 66 – 67 – 108 – 106 – 110) .

الضحى ، وهو الوعي الغائب والنور المنتظر ، وربما كان المثال الكامل أو الإنسان الأعلى (المخلوق على هيئة خالقه) أو الحلم ، الممدوح هو حلم النهار للخروج من ليل الحياة والتغلب على صعوباتها . لماذا العلو والشرف والسعادة..؟! وما دلالة التشبث بهذه الركائز التي لا تتحقق إلا بالحرب ولا تكون الحياة الحقة بدونها ؟ لماذا نكتفي بالنظر إلى بعض محمولات القصيدة دون غيرها ؟ لماذا لا يكون جدل وحوار بين الفقد والوجد ، بين الواقع والخيال ؟ لماذا نكون غير أوفياء للحياة – إذ لا نرى القصيدة من كل جوانبها – وندعي عدم وفاء أبي العلاء لها؟

كان أبو العلاء وفياً للحياة ، ونارها ، كان أميناً في موقفه من الحقيقة شأن كل فنان ، لم ير الحياة جنة ، ولم يرها ناراً ، وإنما رآها جنة لا توجد من دون اصطلاء نار الحرب والصراع .. رآها عزيزة والطريق إليها وعرة موحشة ؛ من ثم كانت الحياة بحاجة دائماً إلى من يشبون نارها ويقبضون على جمرتها !

يشكل الممدوح الفقد والوجد معاً ، وربما شكل الآخر الذي تحاوره الرؤية. الممدوح – إذن – هو ذلك (المشكل) أو (المعجز) ، هو مجمع المتناقضات شأن كل رمز بل شأن كل أسطورة تحاول أن تعطي للحياة معنى ، كان ممدوح أبي العلاء يجسد رغبات .. ويرسم طرقاً .. ما فتئ الإنسان يبحث عنها ، إنه المشكل الذي حرص الإنسان على سبر أغواره بطرح الأسئلة وسرد الحكايات والأساطير . كان هذا كله محاولة لكشف الحجب عن شيء ما غامض . فهل استطاع أبو العلاء أن يميط اللثام ويكشف القناع عن ممدوحه الآخر / الأنا ؟

تستدعي فروسية الممدوح وشجاعته وممارسته الدائمة للحرب – أن يكون ذا خيول وسيوف ورماح ونبال .. فهو كمي شاكي السلاح من كماة ، خيله تبلغه كل غور وتجوب كل فلاة ، وترجع من كل غور مخضبة السنابك والشكائم بدم الأعداء. وسيفه مكمن المنايا ، وفيه الماء والنار الحياة والموت ، ويعشق الرقاب. والدرع ملبسه لا تبلى إلا (حتف أنفه) ، أما درع أقرانه فتبلى من شكه ؛ فهو (مشكل فرسان الوغى كل نثرة) أو تلقى من

خور . الممدوح – إذن – فارس الخيل، وملك بخالقه يعان ، وذو مجد مؤثل ، وهو فتنة – أكان الشاعر يتبنى هذه الفكرة أم يحذر منها ؟ – والخيل والسيف والرمح .. ذات علاقة وطيدة به . والرحلة إلى ذلك الممدوح شاقة وهي رحلة الشاعر وناقته . فمن ذلك الممدوح – إذن – ؟ وأي شيء يجسده تصويره على هذا النحو الأسطوري الفريد ؟

الممدوح هو الموت ومن ثم الحياة ! [1] الرهب والرغب ، السعد والنحس، والقوة والكرم ، والمجد والشرف ، وفقدها ، الممدوح بذلك مشكل ، ولما كان بيده الحياة كانت الرحلة إليه رحلة إلى الحياة أو بحثاً عنها . في المشكل تحرر من قيود كثيرة ، من جهة ، وانفتاح على عالم أكثر وعياً ونوراً ، من جهة أخرى ؛ ولذا فالمشكل هو حلم النهار ، ذلك الحلم العزيز على الإنسان .

ويمتطي حديث المدح – ذلك القناع – عدة كلمات أساسية ، تدور كلها في فلك الحرب وسياقها ، الفارس والفرس والسيف والرمح والدرع .. ومن ثم فإن فكرة الحرب تمثل سياقاً أو إطاراً عاماً لكل ما يتصل بهذه الكلمات التي تتمركز حول الفارس الممدوح . وفكرة الحرب والصراع والمجاهدة عميقة الصلة بحياة الإنسان وعقله وروحه .. المشكل وثيق الصلة بالشاعر والقصيدة ، فالقصيدة حرب ومجاهدة ، ومواجهة مع ذلك المجهول ، وما ينسب إلا إليه سؤددها !

وتعد قيم القوة والجود والمجد والشرف مناط الحديث عن الفقد أو الغياب ، الذي تموج به الرؤية ، من خلال ذلك الحضور الطاغي لها . فالنفي يكتنف الإثبات. كان اللجوء إلى المشكل تأملاً في الحياة وما يكتنفها من فقد وعجز .. وما تحتاج إليه من قوة وقيم تتشكل في لوحة الممدوح / المشكل ، كان وعياً بالحياة وبحثاً عن مشقة الوعي بحياة أكثر خصوبة وإشراقاً . وهو ينطوي على احتجاج أساسي على حياة مظلمة جائرة تشكل الوجه الآخر الغائب لذلك الوجه المشرق في قصائد المدح ، فثمة جدل وحوار بين

---

(1) راجع : د. مصطفى ناصف: قراءة ثانية لشعرنا القديم ، ص 183

الحضور والغياب ، ولا يفهم الحضور بمعزل عن غيابه الذي يحوم حوله . فالقوة هنا جهد لا يتوقف عن الصراع في محاولة للخلاص من الضعف والتغلب على الفقد الأليم [1] .

ولنتأمل ذلك في خلال الشعر ذاته متخذين من الممدوح محوراً أساسياً لكل ما يتعلق به ، فهو مركز المدح وبؤرته ، وكل شيء بعد ذلك يدور في فلكه، كل ما يتمتع به من مكانة وصفات وقيم ، وكل ما يملك من خيول وسيوف ورماح و.. كذلك الرحلة فما كانت إلا إليه .

4. الممدوح المشكل :

سبقت الإشارة إلى أن الممدوح مشكل أو معجز ، يعلو ويتصاعد ولا يتحدد ، فلا تكاد ترتبط الرؤية الرمزية بهذا أو ذاك من الناس ، وإنما هي بحث عن شيء غامض ، تتأمله وتقلبه على وجوهه المختلفة، وتشكله من خلال ذلك البحث الشاق، والتساؤل المضني . وأهم ما يسترعي الانتباه في ذلك الحديث هو لقب (الأمير) الذي ينطوي على الرفعة والسمو والسلطة والإرادة ، الأمير مرهوب الجانب وذو سطوة وكرم ومجد .. وبيده مقاليد الأمور . ولا تفهم أهمية الرفعة والسلطة والإرادة .. بمعزل عن الضعة والهوان والقهر والانسحاق وعدم السيطرة..

إن من أوضح صفات الممدوح أنه يعلو على الواقع أو يتجاوزه في كل صفاته وأفعاله ويكاد يتحد بالمطلق إذ يتجه نحو السماء في أكثر أحواله .

يقول أبو العلاء :[2]

38- ولولا قولك الخلاق ربي لكان لنا بطلعتك افتتان
59- فإن تعاون الأملاك جهل على ملك بخالقه يعان

---

(1) راجع : جيرد براند : العالم والتاريخ والأسطورة ، ص 114 .

(2) شروح سقط الزند : 1 / 199 ، 218 .

الممدوح بداية ليس هو المطلق وإن اتجه نحوه ، فهو ما يزال دون المطلق المتعالي. ولكن المهم أنه فتنة ومن الجهل أن يعادى ، فضلاً عن أنه لا طاقة لأحد بمعاداته . يقول :[1]

21- أسهب في وصفه علاك لنا حتى خشينا النفوس تعبدها

ما زال الممدوح علياً ، يفتن بجلاله النفوس ، وينافس في العبادة ! يقول في القصيدة نفسها :

1- تثني عليك البلاد أنك لا تأخذ من رفدها وترفدها
2- من ارتعت خيله الرياض بها وكان حوض الصفاء موردها
3- ففي نبات الرءوس تسرحها أنت وماء الجسوم توردها
4- خيلك طول الزمان قائلة أما لذا غاية فيقصدها
5- كم بمكر الطعان تحبسها وكم وراء العدو تطردها
6- أعينها لم تزل حوافرها تكحلها والغبار إثمدها
7- إن لها أسوة إذا جزعت في بيضك الخاليات أغمدها
8- لا رقدت مقلة الجبان ولا متعها بالكرى مسهدها
9- ولا نفس تبغي الحياة جاهدة وفي يمين المليك مقودها
10- فلا اقتحم الشجاع مهلكها ولا توقي الجبان مخلدها
11- لكل نفس من الردى سبب لا يومها بعده ولا غدها
12- قل لعدو الأمير يا غرض الـ ـدهر ومن حتف نفسه ددها
13- هذا هو الموت كيف تغلبه وفضله الشمس كيف تجحدها

ثمة علاقة جدل قوية بين الأمير والدهر والموت والحياة ، بين هذه الكلمات تقاطع وتداخل وتعاون يؤكد الفتنة المرهوبة . كذلك هناك علاقات جد معقدة ، بين النفس والحياة واللهو والموت والدهر ، تشكل مفهوم الحياة الهش في مقابل الموت الذي لا قبل لأحد به ، ولكنها وراء هذا وذاك تسعى لتكوين مفهوم للحياة قوية .

---

(1) شروح سقط الزند : 2/ 834 .

ما علاقة قوله : (والنفس تبغي الحياة جاهدة) بقوله : (لكل نفس من الردى سبب) وقوله : (ومن حتف نفسه ددها) وقوله : (هذا هو الموت ..) ؟ الحياة بغية النفس ورغبتها ، ولا مفر من الردى (لا يومها بعده ولا غدها) فمتى يكون يومها – إذن – ؟ وما علاقة ذلك بالاقتحام والتوقي أو الهلاك والخلد ؟ إذا كان اقتحام الشجاع لا يهلك النفس ، وتوقي الجبان لا يخلدها فهل غير الشجاعة والاقتحام خيار ؟[1] هذه هي الحياة وهذا هو يوم النفس ، أما الموت فهو معاداة الأمير واختيار الجبن الذي لا يقي . ما علاقة الردى بالحتف والموت والدد ؟ ربما كانت القصيدة مشغولة بالموت والدهر وحتمية المصير ، ولكنها كذلك مهمومة بموت آخر من ملامحه (الدد) والغفلة عن العدو . يقول :[2]

– ومضطغن عليك وليس يجدي ولا يعدي على الشمس اضطغان

هل ثمة علاقة بين الدد وجحود الشمس ؟ أليس حتف النفس هو جحودها الشمس كما هو ددها ؟ ثمة سؤال ينشأ ويحوم حول علاقة الجدل بين السؤالين المتوازيين: كيف تغلبه ؟ كيف تجحدها ؟ إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يغلب الموت ولا حيلة له معه فلم يجحد الشمس ؟ ما علاقة جحود الشمس بمعاداة الأمير ؟ ما الذي بتّت حباله وتسعى القصيدة إلى وصلها ؟! وما تلك الشمس التي جحدت ، وما علاقتها بالنفس الإنسانية والحياة والموت والفضل؟ ما علاقة قوله : (أما لذا غاية فيقصدها) بالصاحب والإخلاص والولاء في (العنوان) ؟ ولماذا الإلحاح على مفاهيم الصاحب والعدو والشجاعة والجبن والحياة والموت والحرب والعروس ؟ ما هذا التداخل أو التماهي بين الأطراف :

(قاضية حقه لديك وما ينسب إلا إليك سوددها) ؟

لماذا كان الممدوح مخدومه وصاحبه وما دلالة ذلك ؟ جاء في ديباجة القصيدة: "كان أبو عبد الله السقاء الكاتب سأله أن يعمل قصيدة إلى صاحبه – أو مخدومه – يصف

---

(1) يقول المتنبي : (معجز أحمد : 1 / 309)

وكيف يبيت مضطجعاً جبان فَرَشْتَ لجنبه شوك القتاد

(2) شروح سقط الزند : 1/ 187 .

لـه مـا شاهده فيه مـن الإخـلاص والـولاء[1] ، فمـا علاقـة القصـيدة بـذلك؟ ولنتأمـل (مخدومه) ، قال :[2]

- وعبـد غيـرك مضـرور بخـدمته ... كالغمد يبليه صون الصارم الذكر
- ومـن يـك ذا خليـل غـير سيـف ... يصـادف في مـودته اختـلالا[3]
- سـترجع عنـك وهـي أعـز إبـل ... إذا إبـل أضـر بهـا امتهـان[4]

ما دلالة الرجوع وما علاقته بالرحلة وما ذلك التوتر بين العزة والامتهان في (وهـي أعز إبل) و(أضر بها امتهان) ؟ ما هدف الرحلـة – إذن – ومـا الـذي تدفعـه وتتقيـه أو تقاسيه وتسعى إلى الخلاص منه ؟ لماذا العزة والامتهان ؟ يقـول :[5]

1- أعـن وخـد القـلاص كشفت حـالا ... ومـن عنـد الظـلام طلبـت مـالا؟
2- ودرا خلـت أنجـمه عليـه ... فهـلا خلـتهن بـه ذبـالا
3- وقلـت الشمـس بالبـيداء تبـر ... ومثلـك مـن تخيـل ثـم خـالا
4- وفي ذوب اللجيـن طمعـت لمـا ... رأيـت سرابهـا يغشـى الرمـالا
5- رمـاك الله مـن نـوق بـروق ... السنـوات تثكـلك الإفـالا
6- فقـد أكثـرت رحلتنـا وكانـت ... صـغار الشـهب أسرعهـا انتقـالا
7- تذكـرك الثـوية مـن ثـدى ... ضـلال مـا أردت بـه ضـلالا
8- ولـو أن المطـي لهـا عقـول ... وجـدك لم نشـد بهـا عقـالا
9- مواصلـة بهـا رحلـي كـأني ... مـن الدنيـا أريـد بها انفصـالا
10- سألـن فقلت مقصـدنا سعيد ... فكـان اسم الأميـر لهـن فـالا

---

(1) شروح سقط الزند : 2 / 822 .
(2) المرجع السابق : 1 / 169 .
(3) المرجع السابق: 1 / 105 .
(4) المرجع السابق : 1 / 184 .
(5) المرجع السابق : 1 / 41 .

الأمر أعمق من اسم الأمير ، بل يتعلق بالمقصد نفسه في علاقته بالواقع في بداية القصيدة . كان المقصد سعيداً ، فماذا عن الواقع ؟ وما دلالة الفأل هنا وما علاقة رحلة الناقة التي يريد بها الانفصال عن الدنيا بالمقصد السعيد واسم الأمير؟ وما دلالة التحول الذي يحدث في القصيدة ويبدو جلياً في الانتقال من المقدمة / الفقد ، إلى الممدوح / الوجد ؟ من العجز والضعف إلى القوة والإرادة وبعث الحيوية من خلال النموذج ، رغبة في النجاة وخلاصاً من اليأس والضعف في بداية القصيدة . القصيدة استبطان للذات وصراع مع الوجود ، لوحة المقدمة ولوحة المدح وجهان للذات ، ولا بد من الكشف عن العلاقة بينهما ؛ لرؤية القصيدة أكثر وضوحاً . فالقصيدة تترامى عبر المقدمة والرحلة إلى ذلك الممدوح الأمير :

48- ولكن بالعواصم من عدي أمير لا يكلفنا السؤالا

والسؤال دليل الظمأ والفقد والعجز الذي يبدو في موقف الشمس والثريا (تتوقى) أسنة الأمير ، والشمس (لا تقدر) على الرجوع بعد الزوال . وإزاء هذا الضعف والعجز نجد الأمير قوياً قادراً ؛ ولذا يبتهل الشاعر له :

75- ليهنك في المكارم والمعالي كمال علم القمر الكمالا

فما هي تلك الشمس التي لا تستطيع الرجوع بعد الغروب ، وما علاقتها بالشاعر أولاً وبالأمير ثانياً ؟ وما علاقتها بالشمس في البيت الثالث (وقلت الشمس بالبيداء تبر) والسراب والتخيل والضلال ؟ أليست القصيدة كلها توتراً بين الواقع والحلم والخيال ، بين الفقد والوجد بين الظلام والنور ؟ أليست القصيدة ابتهالاً للعيد الغائب ، وابتعاثاً للحيوية والقوة والإرادة ؟

ولنتأمل التهنئة بالمكارم وبالمعاني ، والإلحاح على ذلك والتشبث به . والأمير أجل من عيد :

80- وأنت أجل من عيد تهنا بعودته فهنيت الجلالا

81- ومر بفراق شيمتها الليالي تجبك إلى إرادتك امتثالا

فهل نستطيع أن نقيم علاقة على هذا النحو بين النموذج والسؤال في بداية القصيدة أو المقدمة كلها ؟ وما علاقة ذلك الحديث بالشيب وذهاب الشباب وتلك المهاة في ذلك الليل ، التي أراد الشاعر أن يصيدها ؛ فنم بطيفها الجواد وصهيله ؟ ربما تتضح تلك العلاقات في ظل ذلك السياق الرمزي وعلاقته بذلك الغائب . إن الاهتمام بالممدوح وخيله و.. اهتمام بالفقد والغياب من وجه آخر ، اهتمام بذلك السر الذي لا يحوزه إلا الممدوح ويخفى ولا يظهر إلا له [1].

7- تخفى ولا تظهر إلا إذا ... أحرزها منزلك الأعظم

8- كأنها سر الإله الذي ... عندك دون الناس يستكتم

ويمدح أبا الفضائل سعيد بن شريف بن علي بن أبي الهيجاء – فيترامى الحديث عن الممدوح حتى يصل إلى خيله وما ترده من ماء ، ومنها إلى قوله :[2]

55- كلا كفيك في سلم وحرب ... يكون الخوف منها والأمان

56- فليس بشاغل اليمنى حسام ... وليس بشاغل اليسرى عنان

ثم يلتفت الحديث التفاتة غريبة في الظاهر عميقة الصلة بكل ما سبق في الباطن الرمزي ، وهي توجيه الحديث إلى الآخر الذي لم يكن موجود في القصيدة من قبل:

57- فكن في كل نائبة جريئا ... تصب في الرأي إن خطئ الهدان

58- وسائل من تنطس في التوقي ... لأية علة مات الجبان

59- فإن تعاون الأملاك جهل ... على ملك بخالقه يعان

60- يعبر سيفه لفظ المنايا ... كما شرح الكلام الترجمان

61- ويسلك رمحه في كل باغ ... كما سلك المضيق الأفعوان

62- ويكنى باسمه عن كل مجد ... وكل اسم كنايته فلان

63- ويعدم عنده في الجود مطل ... ومعدوم مع العتق الحران

---

(1) شروح سقط الزند : (2 / 847) .

(2) شروح سقط الزند : (1/ 216) .

64- إذا سميته في أرض جدب نزلت وكل رابية خوان
65- تطاولت الوهاد هوى وشوقا إليه كما تقاصرت الرعان

ووجه الغرابة في ذلك الالتفات ليس دخول طرف جديد عبر التجريد في الحوار ، وإنما لون الخطاب نفسه الذي انعطف بشدة نحو الجرأة والجبن ، وعلاقتهما بالموت وحتميته وأنه أمر إلهي لا مرد له ، وهذا أمر يلح على الرؤية العلائية التي لا ترى غير الشجاعة في مواجهة الموت ، وأن الإنسان عليه أن يكون شجاعاً ، فالجبن لا يقي والشجاعة لا تهلك . وعلى ذلك فالشجاعة أولى بالاختيار ، فضلاً عن كونها أحق من الجبن وأكرم لنفس الإنسان أزكى .

ثم تنتهي القصيدة بالتفات آخر إلى الممدوح وعلاقته بالمكارم :

65- تطاولت الوهاد هوى وشوقا إليه كما تقاصرت الرعان
66- ستفديك المكارم راضيات وما منها بفديتك امتنان
67- إذا صالت فأنت لها يمين وإن نطقت فأنت لها لسان

تتعرض قيم القوة والشجاعة والجود والكرم في ظل هذا السياق لغير قليل من التغيير ، فالجود تغير مفهومه ، والقوة تبدلت أركانها ، والمكارم لا قيمة لها إلا في علاقتها بذلك الممدوح ؛ فهو يمينها ولسانها ، هكذا يتكشف الحاضر عن غائب ربما يكون أهم منه ، أو على الأقل لا يفهم هذا الحاضر بعيداً عن ذلك الغائب فلكل ظاهر باطن وعمق .

كان أبو العلاء يبني نموذجاً للنفس الإنسانية الشريفة في نموذجه/ الممدوح ، كان يعكف على النفس يتأملها وينازلها ليكشف عن حقيقتها . كان يبحث عن الحياة حرة شريفة سامية . كان يطهر النفس بالحرب والدم من خلال الاهتمام بالحرب وآلاتها ، والتركيز على القرع والصراع والمناوشة ، فالحياة أمرها أدب ؛ ولذا كانت النفس شديدة قوية ، وكان النموذج فارساً يجمع المكارم والمعالي .

كان أبو العلاء – إذن – وفياً للحياة ولكن علينا ألا ننسى السؤال الأساسي : أي حياة يفي لها ؟ لم يكن أبو العلاء يرى الحياة لذة ومتعة فارغة من القيمة والشرف والمعاناة ، بل إن القيمة والشرف والمعاناة والصراع والحرب لهي الحياة جميعاً . الحياة تستحق المعاناة وخوض الحرب فهي حرب وتحتاج الحرب إلى فارس مغوار عكف أبو العلاء على تمثاله ؛ ليكشف لنا عن معالمه وقسماته .

الممدوح (ملك بخالقه يعان) فلا ينفع تعاون أو تآمر عليه . فما ذلك الجود الذي يرجى من الممدوح ؟ ربما لا يتبين قدر الجود إلا في علاقته بالحياة والليل والحرب ، فإذا كانت (سعدى) بخيلة ، وكان المطل سمتها والتردي حالها – فإن الممدوح حينئذ – جود يرجى وحلم وأمنية عزيزة ؛ لتلاشي نقصها . فالنموذج بعث للحيوية المنقطعة ومحاولة لاستمرار الحياة أو استعادتها وتخليصها من براثن الضعف والدنس والتدني . ألا يعد ذلك إطلالة عميقة ذات مغزى متعدد الأبعاد ، على النفس والمجتمع والحياة جميعاً ؟ هل يمكن أن نتغاضى عن أوجه الضعف والعجز الواضحة في قصائد المدح جنباً إلى جنب مع وجوه القوة والإرادة ..؟ وهل يرى وجه من دون الآخر ؟ لعل حيوية القصيدة وفاعليتها لا تبدو بمعزل عن التفاعل والجدل بين الوجوه متآزرة ومتصارعة .

يقول أبو العلاء : [1]

21– سر أهل الأمصار والبدو حتى جازهم عامدا لأهل القبور

22– رد أرواحهم فلولا حذار الله قاموا من قبل يوم النشور

الممدوح النموذج هو السعادة والسرور . بين (أهل الأمصار) و (أهل القبور) مسارب خفية . فكلاهما وجهان لعملة واحدة ، فليس وراء هذه إلا تلك ، وهما حالان مختلفان متعاقبان للإنسان ، ولكن القصيدة ربما رأت شيئاً آخر ، من خلال المفارقة التي ينطوي عليها البيت في هذا التكرار ، الذي يتراءى طرفاه إلى ما لا نهاية كمرآتين

(1) شروح سقط الزند : 1 / 234 .

متقابلتين ، هنا نستطيع أن نفهم قوله : (رد أرواحهم) من خلال مفارقة أهل الأمصار ، أهل القبور .

يقول :[1]

10- لولا انقطاع الوحي بعد محمد ... قلنا محمد من أبيه بديل
11- هو مثله في الفضل إلا أنه ... لم يأته برسالة جبريل
12- قل للذي عرفت حقيقته به ... إذ لا يقام على الدليل دليل
13- ما بال سابقة يصل لجامها ... أرنت وعقد حزامها محلول
14- كالطرف يقلقه المراح صبابة ... بالجري وهو مقيد مشكول
15- أكذا الجياد إذا أرادت موردا ... نضب الفرات لها وغاض النيل

المشكل عرفت حقيقته به ، فلا يقام على الدليل دليل ! يقول :[2]

19- ويطلب منك ما هو فيك طبع ... ومطلوب من اللسن البيان
20- وممتحن لقاءك وهو موت ... وهل ينبى عن الموت امتحان ؟
21- ومضطغن عليك وليس يجدي ... ولا يعدي على الشمس اضطغان
22- ورب مساتر بهواك عزت ... سرائره وكل هوى هوان
23- أحبك في ضمائره ونادى ... ليعلنها وقد فات العلان
24- وصلى ثم أذن مستقيلا ... وقبل صلاته وجب الأذان
25- تضمن منك ذي الدنيا مليكا ... عليه لكل مكرمة ضمان

المشكل كالموت معجز أعجزت في الوصف سجاياه . وهو دليل لا يقام عليه دليل ، فهو أصل وجوهر ومبدأ وغاية بعيدة ، وورد عزيز المنال على طرف نشيط قلق صب ، مقيد مشكول كذلك . ومن ثم فاللقاء - دائماً - يكون بالروح دون الجسد ، فقد قرب المزار ولا مزار .

---

(1) شروح سقط الزند : 2 / 873 .

(2) المرجع السابق : 1 / 185 .

يقـول : [1]

35- ودون لقائك الهضبات شما تفوت الطرف والفلوات فيحا

اللقاء بالممدوح / النموذج دائماً لقاء ذو خصوصية ، فلماذا تلك الخصوصية ، وما علاقتها بالبحث عن الذات وحقيقة الوجود ؟ لا يمكن تأمل الحياة بمعزل عن الموت ، الإنسان مغلول وحريته مرتبطة بقيوده ، وحلم الخلاص والنجاة لا ينفك عما ينجو منه .

المشكل مناط حركة روحية عميقة الجذور . يكشف الجدل بين الهوى والهوان والعزة عن حركة الوعي بحقيقة الوجود الإنساني . ما ذاك العلان الذي فات والأذان الذي يتلو الصلاة ؟ وما دلالة الأذان بعد الصلاة استقالةً ، وما قيمته ؟ تعز السرائر بهواه ولكن تنجو تلك العزة من الهوان فكل هوى هوان ، وكل إثبات ينطوي على نفي . إن ما يعز به الإنسان يذله ! وكيف كان الأذان بعد الصلاة ؟! من قبل كانت الصلاة بلا إمام ومقصورها طويلاً ، فما طبيعة تلك الصلاة ولمن تكون ؟! لماذا (مساتر) و(ضمائر) ؟! ثمة فوت أضنى الإنسان البحث عنه والتعلق بحباله في تعلقه بحبال الشمس ! ذاك الفوت أو الفقد هو لب أزمة أو المأزق الروحي .

5. الرحلة إلى الممدوح :

لما كان الممدوح هو ذلك المجهول على الرغم من تعدد أسمائه ، التي تعد مناوشتها رغبة في الكشف عن ذلك المجهول وتقييده أو تأطيره – لما كان الممدوح كذلك كانت الرحلة شاقة قاسية محفوفة بالمخاطر . يقول : [2]

28- تقطع في لقياك دوية يدمها الحافر والمنسم

ويقول :[3]

36- فجاءك كلها بالروح فردا وقد سرنا به جسداً وروحاً

---

(1) شروح سقط الزند: 1 / 267 .

(2) المرجع السابق : 2 / 860 .

(3) المرجع السابق : 1 / 268 .

فالناقة هي نفس الشاعر وهي الحياة التي تقله ، وعبر التجريد يصل الشاعر إلى الممدوح بناقته ؛ رحلة الناقة هي رحلة النهر إلى المصب / الممدوح . فهو قبلتها التي لا تحيد عنها ، وإن لم تعرفها وتساءلت عنها فإنها لا تكف عن السعي إليه . يقول :[1]

- وإن ذهلت عما أجن صدورها فقد ألهبت وجداً نفوس رجال

لماذا استراتيجية الرحلة على الخصوص ؟! ليس الجواب بالصحراء والبيئة و.. كافياً . وإن كان مهماً وضرورياً بوصفه الواقع المحيط والمتاح . ولكن المفازة مهلكة وهي من هذا الوجه تتداخل مع الحرب في لوحة الممدوح . الرحلة ارتحال من .. إلى .. والرحيل انفصال عن .. واتصال بـ .. الرحلة فراق ولقاء معاً ، هجر ووصال ، سأم وشوق ، بعد وقرب ، وعلى الرغم من أن الممدوح يظل أينما كان والرحلة دائماً تتجه نحوه [2] .

يقول :[3]

- ولو صنعاء كنت بها لهزت هواي إليك نوق أو جمال
- عسى جد تعثره الليالي يقال له لعا ولمن يقال ؟!

إلا أنه كذلك حجر يتسلمه الحجاج ويذهب إليهم أينما كانوا ! إليك الرحلة ![4]

- إليك طوى المفاوز كل ركب سما بهم التغرب والبعاد

---

(1) شروح سقط الزند : 3 / 1182.

(2) يقول المتنبي : (معجز أحمد : 1 / 311) .

- محبك حيث اتجهت ركابي وضيفك حيث كنت من البلاد

ويقول : (معجز أحمد 1 / 184).

- كن حيث شئت تسر إليك ركائبنا فالأرض واحدة وأنت الأوحد

(3) شروح سقط الزند : 4 / 1664 .

(4) المرجع السابق : 1 / 306 .

تطوى المفاوز إليه فوزاً به ، وفوزاً بالسمو في التغرب والبعاد . الرحلة غربة واغتراب وشوق من أجل السمو : [1]

65- تطاولت الوهاد هوى وشوقا إليه كما تقاصرت الرعان
23- متى أنا في ركب يؤمون منزلا توحد من شخص الشريف بأوحد[2]
24- على شدقميات كأن حداتها إذا عرس الركبان شراب مرقد
25- تلاحظ أعلام الفلا بنواظر كحلن من الليل التمام بإثمد
26- وقد أذهبت أخفافها الأرض والوجى دما وتردى فضة كل مزبد
27- يخلن سماما في السماء إذا بدت لهن على أين سماوة مورد

متى ؟ متى التوحد ؟ ربما كانت الرحلة هي رحلة العودة وهي رحلة الوعي الإنساني الذي يستكشف به الشاعر أمر الحياة في رحلة الناقة ، وأمر المجهول في لوحة الممدوح . الرحلة بحث عن المجهول ، وشوق إليه . والقصيدة انشغال واشتغال بالغياب ، مغامرة ومخاطرة ، يمتحن فيها الشاعر ذلك الممدوح المشكل ويستوضحه ويستكشفه قدر ما يجود عليه الوعي الإنساني بالغياب في بهائه وإشراقه وظلمته ، في قوته وجبروته وبطشه وجوده وعطائه وحلمه .. وبحث عن الممدوح بحث شاق في الوجود الإنساني وتأمل عميق في حقيقته

يقول :[3]

1- متى يضعفك أين أو ملال فليس عليك للزمن ابتهال
2- وحبل الشمس مذ خلقت ضعيف وكم فنيت بقوته حبال
3- كتابك جاء بالنعمى بشيرا ويعرض فيه عن خبري سؤال
4- وحالي خير حال كنت يوما عليها وهي صبر واعتزال

---

(1) شروح سقط الزند : 1 / 222 .
(2) المرجع السابق : 1 / 367 .
(3) المرجع السابق: 4 / 1657 .

5- ويلفى المرء في الدنيا صحيحا كحرف لا يفارقه اعتلال
6- فأما أنت - والآمال شتى- فلقياك السعادة لو تنال
7- بعدنا غير أنا إن سعدنا بغبطة ساعة عكف الخيال
8- فأرقنا طروقك لا أثيل مؤرقة الهجود ولا أنال
9- ولو صنعاء كنت بها لهزت هواي إليك نوق أو جمال
10- عسى جد تعسره الليالي يقال له لعا ولمن يقال ؟
11- وقد ترضى البشاشة وهي خب ويروى بالتعلة وهي آل

تبدأ قصيدة (المدح أو التهنئة) بالأين والملال ! وترك الابتهال وحبل الشمس الضعيف القوي الذي يفنى بقوته - على ضعف الحبال (وكم فنيت بقوته حبال) . والخطاب في البيت الأول للذات على التجريد . والأمر كله متعلق بالزمان وصروفه وغدر (الليالي) والأيام (الطوال) . فثمة علاقة بين (ويضعفك) وحبل الشمس (ضعيف) ، وبين حبل الشمس والزمن .

ثم يأتي الخطاب في البيت الثالث (للممدوح المهنأ) ويشرى كتابه بالنعمى، وسؤاله عن خبره ، ويتحد حال الشاعر بحال المهنأ وهي خير حال كانا عليها (صبر واعتزال) صبر على الدنيا واعتزال الناس . فسلامة الإنسان في الدنيا داء ، وصحته سقم ، فالعلة كامنة فيه صحيحاً ! فما باله معتلاً !

وجود الإنسان مطبوع على الاعتلال في أصل وضعه ، الاعتلال لازم له في هذه الدنيا. ذلك الاعتلال هو ما ينتظره من الموت المحتوم ، وإذا كان الوجود الإنساني على هذا النحو من الشقاء ففي أي شيء تكون السعادة ؟

يأتي البيت السادس انتقالاً من ذلك الاعتلال في الحديث عن حال الذات ، إلى الآخر / المهنأ ، وهو انتقال سطحي فحسب . فالحديث عن ذلك الاعتلال ما يزال يشغل الرؤية (فأما أنت)، لقاء الممدوح / المهنأ هو ما يؤرق الشاعر ويقلقه .

ألا يشك أبو العلاء في إمكانية حصول السعادة من جراء اللقاء ، بقوله : (لو تنال) ؟ ألا يمكن أن يكون تفرق الآمال في لقاء ذلك الممدوح ، كما أن السعادة فيه كذلك ؟! كذلك الاشتباه في قوله :

9- ولو صنعاء كنت بها لهزت هواي إليك نوق أو جمال
10- عسى جد تعثره الليالي يقال له لعا ولمن يقال ؟

ربما أخذ أبو العلاء ما أعطاه ، وشك فيما أثبته ونفاه ، وذلك من خلال الوعي بحقيقة الموقف وأبعاده المتضاربة . فهو بعيد (بعدنا) غير أنا (إن) سعدنا بغبطة ساعة عكف خياله مؤرقاً ، فهو على بعده مدركه بخياله المقيم المؤرق (فأرقنا طروقك) . الممدوح هو ذلك المؤرق الغائب الحاضر الذي لا يريم !

لا تختلف فكرة قرب المهنأ على بعده ، عن فكرة قوة حبل الشمس على ضعفه ، أو فكرة اعتلال المرء على صحته ، وسقمه على سلامته ، أو فكرة الرضا بالبشاشة على خداعها ومكرها ، أو فكرة الري بالتعلة وهي سراب ، أو فكرة النجيب المقيد ولا قيد ، أو عن فكرة السعادة في اللقاء وامتناعها ؛ ومن ثم فإن القصيدة بحث عن الحقيقة في التناقض والاختلاف والتداخل والجدل بين الأطرف والوجوه . فلو كان بصنعاء لأتاه به فرط اشتياق ، عسى سعد تعثره الليالي يقال ، أو يقال له لعاً ولمن يقال ؟! الحرف لا يفارقه اعتلال ، والعمر إذا أدبر لا يقبل ، والحياة إن ذهبت لا تعود ؟ ولكن قد ترضى البشاشة وهي مكر وخداع ، ويرتوي الإنسان بالتعلة وهي كالسراب الذي لا ري للظمآن فيه . هل يمكن أن تفهم طبيعة اللقاء بمبعدة عن ذلك البيت الذي يتشكك في البشاشة وفي التعلة بها ؟ السعادة – إذن – خب وخداع والتعلة بالبشاشة في اللقاء ارتواء بالسراب .

ما زالت المفارقة هي عدسة الرؤية الكاشفة عن حقيقة الموقف . ترضى البشاشة وهي مكر وخداع ، ويروى بالتعلة وهي سراب ، وتؤمل السعادة في اللقاء وهو موت :

20- وممتحن لقاءك وهو موت وهل ينبى عن الموت امتحان ؟

ربما كانت الرحلة في أحد وجوهها خلاصاً من هذا الموت وتخففاً من عبئه ، وتطهراً منه بالدم . يقول :

12- تعالى الله هل يمسي وسادي ... يميـــن للشمـــلة أو شمـــال
13- وهـل أرمـي بمتلـفة نجيـبا ... متى ينهض فليس به انتقال
14- كـأن عليـه قيـدا أو عقـالا ... ولا قيـد هنـاك ولا عقـال
15- تصاهل حوله الحدأ الغوادي ... كما تتصاهل الخيل الرعـال
16- فعـال كـان أودى غـير ذكـر ... وقبل الذكر يندرس الفعال
17- أرى راح المســرة أثملتـني ... وتلك لعمري الراح الحلال
18- وقبل اليـوم ودعني مراحـي ... وأنستنـيه أيـام طـوال
19- هنيـئا والهنـاء لنـا جميعـا ... يقيـنا لا يظـن ولا يخـال
20- بمنـتظر مراقبـة السـواري ... يهـش لبرقهـا عصـب نهـال
21- علـى آسـان آبـاء كـرام ... لهـم عـن كـل مكـرمة نضـال
22- إذا نـالوا الرغائـب لم يتيـهوا ... وإن حـرموا العظـائم لم يبـالوا

هنا يأتي دور السؤال / القناع . السؤال يضعنا أمام (المشكل) الذي لا يحل، والحيرة التي لا تنقضي . يكون السؤال دائما عندما يكون الوعي ، فهو بنية الوعي الذي يتشكل على مدى القصيدة ، حتى إذا ما اكتمل انبثق في السؤال الذي يحاول الاحتفاظ بجمرة الحقيقة متوهجة. السؤال وعي بمفارقة الحياة ورحلتها ، تلك الرحلة البدع : [1]

- ونحـن السفر فـي عمـر كمرت ... تصافن أهـله جـرع الحـمام

ما تلك (المتلفة) وما ذلك (النجيب) المقيد بلا قيد الذي تجتمع حوله الحدأ؟ أو ذلك الحرف الذي لا يفارقه اعتلال ؟ وما دلالة (أودى) و (يندرس) و (ودعني مراحي) و (أنستنيه) في علاقتها بـ (أيام طوال) وما تلك الراح الحلال ، راح المسرة ؟ ألها علاقة بالسعادة السابقة ؟ ألها علاقة بلفظ كأن السكر من معانيه ؟

---

(1) شروح سقط الزند : 4 / 1432 .

يضعنا السؤال – إذن – على الأعراف بين ما أودى ولا يفيد أن يقال له لعاً وبين هناء لا يضن ولا يخال ، هناء للجميع بغيث مرتقب ارتقاب الصحب السواري التي تشيم العيون برقها ، وتهش به ، وتنتظر انسكابها وودقها فهم عصب نهال ! أليس ثمة علاقة بين (يهش) و(البشاشة وهي خب) و(عصب نهال) والري بالتعلة (وهي آل) ؟ ولماذا كان الهناء يقيناً وللجميع ؟ ألأنه على آسان آباء كرام ؟ وما دلالة البرق بالسيف في البيت الحادي والثلاثين ؟ ألا يلتبس الميلاد بالموت والهناء بالشقاء ؟ ما دلالة القوافي التي بنيت على الإيطاء في علاقتها بالغربان ؟![1]

يقول :

23- فيا ركبا غدت بهم ركاب ... تنص على غواربها الرحال

24- مآلك حملها يجزي بشكر ... وإن تأبوا سوى مال فمال

25- تخب إلى المشرف آمنات ... كلالا إن ألم بكم كلال

26- فإن أنكرتموه بأرض مصر ... فأوصافي له معكم مثال

27- أغر تطول أعناق المطايا ... إليه إذا تقاصرت الظلال

28- ولاذ من الغزالة وهي تذكي ... بغرز الراكب القلق الغزال

29- وثانية نهى توفي بقدس ... وثالثة ينيل ولا ينال

30- دلائل مشفق يخشى ضلالا ... وكيف يخاف عن قمر ضلال

---

(1) يقول : (الشروح 3 / 1274)

12- طار النواعب يوم فاد نواعيا ... فندبنه لموافق ومناف

13- أسف أسف بها وأثقل نهضها ... بالحزن فهي على التراب هواف

14- ونعيبها كنحيبها وحدادها ... أبدا سواد قوادم وخواف

15- لا خاب سعيك من خفاف أسحم ... كسحيم الأسدي أو كخفاف

16- من شاعر للبين قال قصيدة ... يرثي الشريف على روى القاف

17- جون كبنت الجون يصرخ دائبا ... ويميس في برد الحزين الضافي

18- عقرت ركائبك ابن داية غاديا ... أي امرئ نطق وأى قواف

19- بنيت على الإيطاء سالمة من الـ ... إقواء والإكفاء والإصراف

31- بـأن الله قـد أعطـاك سيفـا عـدوك مـن مخـايله يهـال
32- حسـام لا الذبـاب لـه قـرين ولا درجـت بصـفحته النمـال
33- ولا أدنـى القيـون إليـه نـارا إرادة أن يهـذبه الصـقال
34- إذا خلـل السيـوف بلـين يومـا تبلـج لا تـرث لـه خـلال
35- وقـد سمـاه سـيده عليـا وذلـك مـن علـو القـدر فـال
36- أهـل فبشـر الأهلـين منـه محيـا في أسـرته الجمـال
37- بإخـوته الـذين هـم أسـود علـى آثـار مقـدمه عجـال
38- فـإن تـواتر الفتـيان عـز يشـيد حـين تكتهـل الرجـال
39- وهـل يثـق الفتـى بنمـاء وفـر إذا لم تـتل أينـقه فصـال
40- وأول مـا يكـون اللـيث شـبل ومبـدأ طلعـة البـدر الهـلال
41- سـتركز حـول قبـتك العـوالي وتكـثر في كنانتـك النـبال
42- فـإن منـاى أن يثـرى حصـاكم وتقصـر عـن زهائكـم الرمـال
43- وأن تعطـوا خلـودا في سـعود كما خلدت على الأرض الجبال

تكشف الرؤية في حركة أخرى عن تلك الرحلة ، رحلة الركب إلى (المشرف) . وتهتم الرؤية بالمشرف (الغاية) أكثر مما تهتم بالركب والركاب . فالركب نكرة (يا ركباً) وفيه شمول وتعميم ولم يذكر إلا في هذا النداء ، ثم في (إن ألم بكم كلال) واعتلال ، أما الركاب فهي تنص وترفع وتستحث في السير و(على غواربها الرحال) الكلمات تتفاعل فيما بينها (غدت – تنص – غوارب) . أما المشرف فيحظى بنصيب وافر من الاهتمام . الشاعر مشفق يخشى أن نضل عنه فيضع مثالاً لأوصافه . وهل يخاف على قمر ضلال ؟ إنه (يقين لا يظن ولا يخال) وقمر لا يضل عنه ، فهو سيد (أغر) يلتجأ إليه (إذا تقاصرت الظلال) لماذا وقت الهاجرة الشديد الحر خصوصاً ؟ لا يكفي أن نقول إنه الوقت الذي يقصر فيه ظل كل شيء ، الهاجرة وقت لا يطاق حر الشمس فيه (وهي تذكي) لذا يلوذ الغزال – في ذلك الإيهام – حيث يفر (الغزال) من (الغزالة) – بغرز الراكب القلق ، وهو موضع وضع القدم للركوب ، ويا له من ملاذ ! حيث لا يحتمى من

الشمس إلا تحت ذلك الغرز ، غرز الراكب القلق ، ربما لا يحتمى من الهجير إلا بالهجير ، هذه أولى صفاته أنه ملاذ من الهجير فهل كان أبو العلاء يستجير من الرمضاء بالنار؟! وثانية أوصافه : أنه ذو عقل وطهارة ، وثالثتها : ينيل ولا ينال.

ثم ينتقل أبو العلاء إلى سيف المشرف أو المولود المهنأ به ، والذي يهال العدو من مخايله ، ولا ترث له خلال وكذلك في محياه الجمال . وإذا كان أبوه مشرفاً فهو علي (وذلك من علو القدر فال) . وتنتهي القصيدة بما سيركز حول قبة المشرف من العوالي والنبال التي ستكثر في كنانته . وبالمقابل تدعو بصيغة الجمع (فإن منايا أن يثرى حصاكم) (وأن تعطو خلودا في سعود) ولكنه خلود الجبال على الأرض ، خلود بلا وعي ولا أمانة ، ولذلك فهو صعود ؛ لأنه ليس ثمة ما يقلقه أو يؤرقه . الاشتباه مرة أخرى خلود الجبال وسعوده وفقد الوعي . تكثر نباله ويثرى حصاهم ، ويثرى الحصى ويعطو خلوداً في سعود ، كخلود الجبال الجامدة . الحركة الجدلية بين زيادة النبال وزيادة الحصى ، وكلما زاد الحصى تحول على يدي النبال إلى جبال خالدة جامدة . هكذا كان الجدل بين الهناء والشقاء بين الحياة والموت ، بين الوعي وفقده بين فناء الإنسان وخلود الجبال . وكانت الرحلة إلى المشرف رحلة الوعي وبحثاً عن الحقيقة ، وصراعاً مع المجهول على بساط من لغة الوعي والخيال .

يقول :[1]

1- لا وضع للرحل إلا بعد إيضاع ... فكيف شاهدت إمضائي و إزماعي
2- يا ناق جدي فقد أفنت أناتك بي ... صبري وعمري وأحلاسي و أنساعي
3- إذا رأيت سواد الليل فانصلتي ... وإن رأيت بياض الصبح فانصاعي
4- ولا يهولنك سيف للصباح بدا ... فإنه للهوادي غير قطاع
5- إلى الرئيس الذي إسفار طلعته ... في حندس الخطب ساع بالهدى شاعي
6- يممته وبودي أنني قلم ... أسعى إليه ورأسي تحتي الساعي

(1) شروح سقط الزند : 2 / 741 .

7- على نجاة من الفرصاد أيدها ... رب القدوم بأوصال و أضلاع

8- تطلي بقار ولم تجرب كأن طليت ... بسائل من ذفاري العيس منباع

9- ولا تبالي بمحل إن ألم بها ... ولا تهش لإخصاب وإمراع

10- سارت فزارت بنا الأنبار سالمة ... تزجي وتدفع في موج ودفاع

11- والفارسية أدتها على نفر ... طافوا بها فأناخوها بجعجاع

12- ورب ظهر وصلناها على عجل ... بعصرها في بعيد الورد لماع

13- بضربتين لظهر الوجه واحدة ... وللذراعين أخرى ذات إسراع

14- وكم قصرنا صلاة غير نافلة ... في مهمه كصلاة الكسف شعشاع

15- وما جهرنا ولم يصدح مؤذننا ... من خوف كل طويل الرمح خداع

16- من معشر كجمار الرمي أجمعها ... ليلا وفي الصبح ألقيها إلى القاع

17- يا حبذا البدو حيث الضب محترش ... ومنزل بين أجراع وأجزاع

18- وغسل طمري سبعا معاشرتي ... في البيد كل شجاع القلب شراع

19- وبالعراق رجال قربهم شرف ... هاجرت في حبهم رهطي وأشياعي

20- على سنين تقضت عند غيرهم ... أسفت لا بل على الأيام والساع

21- اسمع أبا حامد فتيا قصدت بها ... من زائر لجميل الود مبتاع

22- مؤدب النفس أكال على سغب ... لحم النوائب شراب بأنقاع

23- أرضى وأنصف إلا أنني ربما ... أربيت غير مجيز خرق إجماع

24- وذاك أني أعطي الوسق منتحيا ... من المودة معطى المد بالصاع

25- ولا أثقل في جاه ولا نشب ... ولو عددت أخا عدم وإدقاع

26- من قال صادق لئام الناس قلت له ... قول ابن الأسلت قد أبلغت أسماعي

27- كأن كل جواب أنت ذاكره ... شنف يناط بأذن السامع الواعي

28- إن الهدايا كرامات لآخذها ... إن كن لسن لإسراف وإطماع

29- ولا هدية عندي غير ما حملت ... عن المسيب أرواح لقعقاع

30- ولم أكن ورسولي حين أرسله ... مثل الفرزدق في إرسال وقاع

31- مطيتي في مكان لست آمنه ... على المطايا وسرحان لها راع

32- فارفع بكفي فإني طائش قدمي وامدد بضبعي فإني ضيق باعي

33- وما يكن فلك الحمد الجزيل به وإن أضيعت فإني شاكر داع

الوعي ينعكس على ذاته والقصيدة كلها رحلة أو الرحلة موضوعها ، ومن ثم فالذات أو النفس أو الناقة أو السفينة والرحلة نفسها والممدوح / الرئيس هي عناصر القصيدة والرحلة ، ومراحلها ، والرحلة – كالعادة - رحلة إلى النور ، وبحث عن الصباح ، ومقر للرحل والراحلة جميعاً فقد نفد الصبر والعمر والأحلاس والأنساع :-

- يا ناق جدي فقد أفنت أناتك بي صبري وعمري وأحلاسي و أنساعي

ما هذا الفناء المروع ؟ وما هذا الفقد المتتابع كموج البحر ؟ ما دلالة هذا النداء الداخلي العميق ؟ ما هذا التمزق ؟ وما هذا الضيق بالأناة وما علاقته بالجعجاع وببعيد الورد لماع وبشعشاع ؟

الرحلة محاولة للانفصلات من سواد الليل وخروج من مهمه ومن بحر ذي دفاع ، ولكن الإناخة بجعجاع كذلك ، يكشف ذلك الصراع النفسي المحتدم عن عمق المأساة وشدة الحندس وقسوة الرحلة وقلق الذات وتوترها . الرحلة هجرة داخل النفس للمراجعة والكشف ، وهي جهاد ومشقة ووعي . الذات تشكو الأناة وفناء الصبر .. ومهمه وأمواج بحر ذي دفاع وجعجاع لم تخرج منه بعد ، الرحلة تعانى الضيق والقيود فلا حركة ولا انطلاق أو بسط ، فأناة الناقة هي حركة السفينة في أمواج البحر الثابتة على حركتها فهي لا تتقدم ، كذلك الجعجاع والورد اللماع والشعشاع .

الذات تشك في الرحلة أو ترتاب في الرئيس وترهبه (أسعى إليه ورأسي تحتي الساعي) (بودي) (تزجي تدفع) ، ثمة اضطرار فالسعي بالناقة أو على سفينة تطلي بقار من عرق الإبل ![1] لا تبالي بمحل ألم ولا تهش لإخصاب أصاب ! ثم هم أكبر يشغل الرحلة ،

---

(1) ومطلية قار الظلام وما بدا بها جرب إلا مواقع أنسع

(الشروح : 4 / 1529) .

والرحلة في بحر متلاطم الأمواج ذي دفاع والإناخة بجعجاع ! (تزجي وتدفع في موج ودفاع) فلا وجهة للسفينة . أيختلف البحر عن حندس الخطب أو الليل ؟ وما العلاقة بين سعي الرئيس وسعي الذات / أو القلم ؟ لماذا رأسي الساعي ؟! ولماذا على رأسي ؟

كان سهيل بلا قدمين ، فما العلاقة بين سهيل الغاضب المسرع في عجز، المضرج بالدم في صراعه مع حومة الدجى – وبين ذلك القلم ؟! أكانت الرحلة إلى الرئيس رحلة إلى النفس ؟ أتبحث عن التئام ووفاق معاً ؟ هل يمكن أن ندعى أن الرحلة لا وجهة لها لأنها هي نفسها المقصد والغاية ؟! هل يمكن أن نرى العلاقة بين كل من السفينة و البحر ، أو الذات والناقة ، أو الناقة والسفينة ، أو الذات والممدوح المقصود بالفتيا – محاولات النفس لإقامة علاقة بنفسها ؟ هل يعد الموج – إذن – حركة ذاتية أو داخلية شأن الحركة في القصيدة كلها ؟

الرحلة في مهمه قذف والصلاة موصولة (على عجل) والماء مفتقد وليس ثمة إلا التيمم للتطهر ، ولكن صلاة الفرض مقصورة كصلاة الكسف ، وأطول ما يكون ! والأذان كذلك فعل طبيعي معتاد ولم يجهر به خوفاً وخشيةً . ما علاقة الرحلة بالحج وجمع جمار الرمي وقصر المدة من الليل إلى الصباح ؟ وما علاقتها برحلة العودة ؟ وما دلالة الوضع والإيضاع والإمضاء والإزماع في هذا السياق ؟ أثمة شيء تريد الرحلة التطهر منه ؟ هل كانت الرحلة لاحتراش الضب والنفس معاً ؟ أذلك قال في فتياه (مؤدب النفس) ؟ ما دلالة الحذر أو الرهب الباطني وما طبيعة تلك الرحلة الطويلة القصيرة (سارت فزارت) ، المتحركة الساكنة ؟ وما دلالة القبض والبسط أو جمع جمار الرمي و تفريقها ؟ لِمَ لم يكتمل كل شيء الصلاة والوضوء والآذان .. ؟

وجهة الرحلة محددة منذ البداية (إلى الرئيس) ولكنها مجهولة كذلك ولا تتقدم السفينة ، السفينة تتعاورها الرياح من كل جانب والأمواج المتدافعة . فهاهي طبيعة الرحلة وطبيعة الموقف النفسي وحركة السفينة الرائعة ، في بحر هائج تحت حندس الخطب ولا دليل .

القصيدة طواف بالبيت وصلاة طالت على قصرها ، في مهمه بعيد الورد لماع ، ما دلالة وصل الصلاة على عجل مع ورد بعيد لماع ، وطول الصلاة مقصورة ؟ وما هذا السراب الذي وصلت فيه الصلاة عل عجل ، وما تلك الصلاة التي تقصر فتطول ؟ وما علاقة (ورد بعيد لماع) بـ (مهمه) و (شعشاع) و(رب) بـ (كم) ؟ ثمة شيء من فقد السيطرة على قوة لا تحول عن مسارها ، شيء دفع إلى البحث و الفتيا . فالوصل لا يتمكن من السراب والقصر لا يقصر بل تطول معه الصلاة ! ما علاقة صلاة الظهر والعصر بالنهار والسراب (بالشباب) ؟ وسرعته وخداعه وزيفه ؟ وما علاقة صلاة الكسف في مهمه واحتجاب الشمس بغياب ذلك النهار أو ذلك الشباب ومن ثم بالشيب ؟ أكان الشيب غياباً لشمس ما ؟ أما للشيب من شمس مشعشعة تضيء صحراء النفس ، وتحول دون كسوف الشمس ؟

إن سطوع الشمس مرتبط بسطوع النفس وانجياب ظلمتها ونضجها ونموها ،من الخداع والعجل والنزق إلى الحقيقة والمهل والأناة . ما علاقة (بعيد الورد لماع) بـ (كل طويل الرمح خداع) ؟ ألجمار الرمي التي تجمع (ليلاً) وتلقى في قاع البحر وتدفن في قمقم صباحاً علاقة بآمال تجمع في الشباب وتبددها شمس الشيب والوعي ؟ أليس ذلك تطهراً من الجمار وحرها ؟ أكانت الجمار التي تجمع ليلاً حصيلة حاطب ليل لم تصف بعد ؟ أكان الصباح اختباراً لتلك الجمار الضائعة ؟

ألا يمكن أن نعد أسف الشاعر على الأيام والساع والسنين وعلى ما تقضي في غير جوار العراق ورجاله – أسفاً على الشباب النزق الخداع ، أو أسفاً على الوجود والحياة بأسرها ، وحسرة على الاغترار بالسراب ؟ ألا يشتبه الشيب بأي حامد / الممدوح أو بالفتيا المقصود بها ؟ لماذا كانت الهدية / القصيدة ليست (لإسراف وإطماع) الأن الشباب كان سراباً وغروراً وسرفاً ؟ تشكل الفتيا في مفهوم الحياة والشيب والنضج والوعي والمودة التي بدت مضاعفة ، والعفة عن مصادقة لئام الناس واحترام العرف فلا يجيز خرق إجماع ، والزهد والبعد عن الجاه والنشب أو التخفف (والتطهر) من أعباء الدنيا والرسول الذي لا يبعث إلا ليبتاع جميل الود ؛ لذا قال :

- كأن كل جواب أنت ذاكره شنف يناط بأذن السامع الواعي

فالوعي هو مناط تلقي الوعي بحقيقة الحياة والنفس .هل استطاعت النفس أن تنمو عبر الصراع في القصيدة وأن تصل إلى شمس الوعي ونور الحكمة ورسوخها ؟ هل التأم طرفا الصراع ؟ هل سمت الروح وتغلبت على الأعراض وتطهرت من النزق ووصلت إلى الوضع بعد الإيضاع وانصلتت من الظلام إلى الصباح فانصاعت ؟ هكذا نستطيع الآن أن نفهم السؤال في البيت الأول في ظل هذا السياق، الوضع لم يكن إلا بعد إيضاع . والسؤال محاولة لمراجعة الطريق والإمضاء والإزماع جميعاً . السؤال باب الدخول إلى أعماق الوعي ، وهو نفسه باب الخروج من عتمة الليل وشبهة الريب وهو المصباح الذي يبدد ظلمة النفس ويضيء أعطاف الروح ، ويكشف حقيقة الحياة والموت معاً .

قال في إجابة الشريف العلوي عن قصيدة أولها :

- بعادك أسهر الجفن القريحا ودارك لا تنبي إلا نزوحا

- قصيدة من أربع حركات : حركة البرق من البيت الأول إلى الحادي عشر وحركة الخيل من البيت الثاني عشر إلى الخامس والعشرين ، وحركة الناقة من البيت السادس والعشرين إلى السادس والثلاثين ، وحركة الممدوح من البيت السابع والثلاثين حتى الخامس والخمسين .

وتتكون حركة البرق من ثلاث جمل طويلة ، الأولى من البيت الأول إلى الثالث وتصور الجزع من البرق في ثلاث صور (سرى فأتى الحمى نضوا طريحا) (كما أغفى الفتى ..) (إذا ما اهتاج ..) وكلها تصور إعياء البرق في سراه ووهنه . ومن ثم تأتي الجملة الثانية من البيت الرابع إلى الثامن بتأكيد السفاه والغي لمن يهيم وجداً بهذا البرق وتلك الجنوب ، ولا ندري ما ذلك البرق ولا تلك الجنوب وما يؤمل منهما . ولكن تنتهي الجملة الثانية بما يكشف شيئاً غير يسير من توجه الدلالة وتحديد بعض أبعاد الموقف إذ يذكر إمراض المواعد ، والسقم في علاقتهما بالإعياء ، ومن ثم تفسير السفاه والغي . والأمر لم يزل غامضاً بعد ، فأي سقم وأي مواعد ؟

وتبدأ الحركة الثانية حركة الخيل بالحديث إلى الشريف بوصفه نموذجاً صالحاً للبطولة ولكونه ذا حزم وعزم ، ولإعداده العدة واهتمامه واعتنائه بالخيل . والحركة مهتمة بالخيل وتصويره ، فهو رمز البطولة وآلة المجد . وتنتهي هذه الحركة بتأسيس بطولة الشريف العلوي على عدة محاور ، فهو فارس ذو مكانة ومجد وحسب ونسب .. ولذا كانت الحركة الثالثة معنية بالرحلة إلى هذا الممدوح/ البطل ، فكانت حركة الناقة في هذا الموضع . يقول:[1]

26- فيا بن محمد والمجد رزق ... بقدرك سدت لا قدر أتيحا
27- وما فقد الحسين ولا عليا ... ولي هدى رآك له نصيحا
28- إليك بن الرسول حثثن جدا ... ولم يحذين من عجل سريحا
29- هممن بدلجة وخشين جنحا ... فبتنا فوق أرحلها جنوحا
30- أشحن وقد أقمن على وفاز ... ثلاث حنادس يرعين شيحا
31- دجى تتشابه الأشباح فيه ... فيجهل جنسها حتى يصيحا
32- فمر العام لم تطرق أنيسا ... بدارهم ولم تسمع نبوحا
33- ولا عبثت بعشب في ربيع ... ولا وردت على ظمأ نضيحا
34- فأقسم ما طيور الجو سحما ... كهن ولا نعام الدو روحا
35- ودون لقائك الهضبات شما ... تفوت الطرف والفلوات فيحا
36- فجاءك كلها بالروح فردا ... وقد سرنا به جسدا وروحا

تمثل حركة الناقة توجها نحو الممدوح ، كما تصور الصعاب والعقبات التي تكابدها الإبل في طريقها الطويل ورحلتها الشاقة إليه ، والهضبات والفلوات التي تحول دون لقائه . كذلك تصور مدى الشوق إليه ، وطول الانتظار . فاللقاء به عزيز ؛ فلا يكون إلا بالروح ، ثم تنتقل الحركة الرابعة إلى الممدوح مباشرة وتعديد مآثره . يقول :

---

(1) شروح سقط الزند : 1 / 259 .

37- تبوح بفضلك الدنيا لتحظى بذاك وأنت تكره أن تبوحا
38- وما للمسك في أن فاح حظ ولكن حظنا في أن يفوحا
39- فقد بلغ الضراح وساكنيه نثاك وزار من سكن الضريحا
40- يغيض إليك غور الماء شوقا ويظهر نفسه حتى يسيحا
41- ولو مرت بخيلك هجن خيل وهبن لعجمها نسبا فصيحا
42- ولو رفعت سروجك في ظلام على بهم جعلن لها وضوحا
43- ولو سمعت كلامك بزل شول لعاد هدير بازلها فحيحا
44- وقد شرفتني ورفعت ذكري به وأنلتني الحظ الربيحا
45- أجل ولو أن علم الغيب عندي لقلت أفدتني أجلا فسيحا
46- وكون جوابه في الوزن ذنب ولكن لم تزل مولى صفوحا
47- وذلك أن شعرك طال شعري فما نلت النسيب ولا المديحا
48- ومن لم يستطع أعلام رضوى لينزل بعضها نزل السفوحا
49- شققت البحر من أدب وفهم وغرق فكرك الفكر الطموحا
50- لعبت بسحرنا والشعر سحر منه توبتنا النصوحا
51- فلو صح التناسخ كنت موسى وكان أبوك إسحاق الذبيحا
52- ويوشع رد يوحا بعض يوم وأنت متى سفرت رددت يوحا
53- فنال محبك الدارين فوزا وذاق عدوك الموت المريحا
54- ومن لم يأت دارك مستفيدا أتاها في عفاتك مستميحا
55- فكن في الملك يا خير البرايا سليمانا وكن في العمر نوحا

تبدو كل حركة تسلم إلى تاليتها في يسر وسهولة . ولكن ثمة تساؤلات تثيرها القصيدة بما تقيمه من علاقات ضمنية خفية بين حركة البرق الأساسية والحركات الأخرى . فالقصيدة تثير غلالة شفيفة من الشكوك حول البطولة التي تؤسسها وجدواها ، وتلك الشكوك أضواء خافتة لا تبدو جلية ، فالرؤية في حركة البرق يمكنها أن توجه مجموعة من المبالغات في هذه القصيدة مثل قوله في البيت:

25- ولو كتب اسمه ملك هزيم على راياتـه والـى الفتوحـا

ألا تنطوي القصيدة على مفارقة ، بـأن يتـبرك باسـم الممـدوح العلـوي وأن يـوالي الفتوح ملك هزيم كتب اسمه على رايته في حين أن المجتمع مازال يعاني من البطش على نحو ما جاء في حركة البرق . بل ربما قلنا إن هناك سخرية لا من الممـدوح بـل مـن هـذا الملك الهزيل الـذي لا يملـك إلا أن يرفـع رايـات الممـدوح ولا يملـك أن يغـير صـفوفه وينظمها بما يجلب النصر ، ليس التغيير نابعاً من الداخل، التغيير طارئ من الخارج ، ومن ثم فالقصيدة تسخر من الـ (نحن) أليست القصيدة ، في غير حركة البرق ، ترفـع رايـات الممدوح ؟ ولعل الاستنكار في نهاية حركة البرق واشتباه العناء بالبكاء – كان إيذاناً بهذه المفارقة الساخرة . ليس من السهل أن نقبل مبالغات أبي العلاء قبولاً ساذجا ، أبو العلاء أدهى مما يظن بكثير ، ولا يقدم على مثل هذه المبالغات من أجل ما يـدعى بالمـدح ، إنـه ثمن زهيد جداً ، لا يوفي الشعر حقه . فمن السرف أن نكتفي بـالنظر إلى مبالغـات أبـي العلاء نظرة يسيرة دون محاولة لفهمها وتأويلها .

للرحلة في حركة الناقة طابع خاص ، فالرحلة خيالية أكثر منها واقعية ، فتبدأ بحثثن جداً أو شوقاً . وعلى الرغم من هذا الحث وذاك الجهـد (لم يحـذين مـن عجـل سـريحة) فالأثر ليس مادياً . كما أن اللقاء في نهاية الرحلة لم يكـن بالجسـم والـروح ، وإنمـا كـان بالروح فحسـب . ليس اللقاء بالروح مبالغة كما يظن . وحال الإبل كحال الفرس (على الأين المكرر مستريحا) وهي حال تشي بفقد الوقاية . السريح : وقاية من الحفاء أو علاج منه . الرحلة – إذن – أو الإبل تسير بلا تخطيط أو استعداد أو احتياط . لعل هذه الحـال تنم عن إصرار ورغبة ملحاح أو قوة . ولعلها أيضاً تنم عن اللامبالاة أو انعـدام القـدرة على التأثر والشعور بالأين أو الأزمة . فالراحة هنا مفهوم ملتبس ، الراحة لا تعني القـوة ، الراحة هنا هي لا تفاعل مع الألم أو التعب . الراحة جمود وتصلب إزاء ما يواجه الـذات ، أو إزاء المحنة . الراحة استسلام وتراخ .

تبرز في الأبيات الثلاثة التالية دلالة التردد والخشية والتراجع (هممن بدلجة وخشين) والحذر والخوف (أشحن) والجهل (فيجهل) . فالخشية والحذر والجهل نتيجة الصراع مع ظلمة ليل مطبق (جنحا – ثلاث حنادس – دجى تتشابه الأشباح فيه) ثمة حث ، وثمة ريب وتشكك واشتباه ، ثمة خشية من مخاطر الرحلة. تشكل حركة الناقة جدلاً بين الإقبال على الرحلة والإدبار عنها ، وتوازي جدلية الإقبال والإدبار في حركة الناقة ، جدلية أخرى بين الإفراط والتفريط في حركة الخيل (فرط رى) و(شح) . فثمة حركة نفور وعدم ائتلاف بين الجسم وغذاؤه (أباه) (فمج) ربما كان هذا عرض من أعراض المرض أو من أعراض الليل ، ومظهراً من مظاهر الاختلاف والتباين بين الليل / الفرس ، والصبح / اللبن. فلا يمتزجان ولا يختلطان . وتعد القصيدة محاولة جاهدة للجمع بينهما ، أو إقامة حوار جدلي بين المختلفات . يبرز الاختلاف كما يبرز صعوبة التشابه والائتلاف أو الالتقاء بينها .

وعلى الرغم من حث الإبل طالت الرحلة ، فمر عام بين إقبال وإدبار وحجبت عن الأنيس وحركة الحياة ؛ فلا عشب ولا ربيع ولا ربيع . الرحلة تواجه متاهة ، والإبل طيور هائمة بين سماوات وفلوات تسعى إلى اللقاء ، ولكن الرحلة لم تكن لتحظى باللقاء دون عقبات كثيرة صعب تخطيها ، فلا شك أن الثمن باهظ من أجل اللقاء . ما حقيقة تلك الرحلة ؟ ما حقيقة تلك المتاهة ؟ وإلى أي جهة تئول؟ أهي رحلة الموت ، رحلة الحياة إلى الموت ؟ ما تلك الحنادس الثلاث – إذن – وما تلك الوفاز ؟ وما تلك الدجى ؟ ما هذا اللقاء بالروح ؟

لعلنا نذكر هنا الرؤية العلائية في (عللاني) وهي في الممدوح نفسه ؛ لنر (الحندس والبيد) و(حومة الدجى) ألم نزل مع أبي العلاء في حومة الدجى ؟ عما تبحث الذات في تلك الرحلة الشاقة المتكررة كأنها قدر لا مهرب منه ولا محيص عنه ؟ وأي عين ترمقها عيون الركاب ؟ ما ذلك السراب الذي يداعب النفس الإنسانية في رحلتها نحو المجهول ؟

حقيقة إن "الشاعر يتحدث من خلال العرضي عن الجوهري ، ومن خلال المديح والهجاء والرثاء عن مشكلات الإنسان التي يواجهها باستمرار على الرغم من اختلاف الزمن والثقافة "[1] . ولذا فإن المديح ينطوي على هموم الإنسان أيضاً . "هذا الرضا والإشراق يخفي في داخله بعض ملامح التوتر والظلام."[2] ومن ثم كان المديح في الشعر الجاهلي "محاولة لاشعورية من مجتمع كان يعج بالصراع النفسي والجدل الروحي ، لإعادة الأمور إلى نصابها مرة أخرى."[3] أي إعادة الخصب والإشراق إلى وجه الحياة مرة أخرى ، وقصائد المديح في سقط الزند لدى أبي العلاء الذي فهم الموقف الجاهلي واستوعبه[4] ، ليست بمبعدة عن قضايا الإنسان وهموم المجتمع التي تعتمل في أعماقه وتشكل رؤيته حتى في المديح فهو أنسب الموضوعات للحديث عما يثقل كاهل الإنسان من قضايا المجتمع وهمومه وصراعاته وسلبياته لأن الموت هو الوجه الآخر للحياة ، والإشراق في رؤية الشاعر ظاهر يخفي وجه الحقيقة وحقيقة الظلام والتوتر ، فالمفارقة هي جوهر الرؤية ، وهي الوسيلة الأكثر عمقاً وتجذراً لسبر أغوار الموقف وتجسيد الشرخ العميق داخل الذات ، عبر جدلية الصراع بين القصيدة والواقع .

تترامى أمواج الرحلة متتابعة إلى شاطئ المجهول ؛ فتنحسر عنه متراجعة، بيد أنها تظل تحمل قبساً من الحقيقة ومن شوق إليه فلا تكف عن محاولة اقتحامه والانحسار عنه في حركة لامتناهية مثله .

للرحلة – إذن – طابع أسطوري يتبدى في القصيدة وفي حركة الممدوح، فالرحلة أسطورية وكذلك الممدوح ، بالإضافة إلى ما لهما من إطار مألوف ، ففضله ليس مقصوراً على الأحياء من الناس بل يصل إلى أهل السماء وأهل القبور، كما يصل إلى أهل الدنيا

---

(1) د.مصطفى ناصف : دراسة الأدب العربي ، ص 232 .

(2) د.مصطفى ناصف : اللغة والبلاغة والميلاد الجديد : ص 195 .

(3) د.ثناء أنس الوجود : رمز الماء في الأدب الجاهلي ، مكتبة الشباب 1986 ، ص 187 .

(4) راجع : د.حسن البنا : جماليات الزمن في الشعر .. ص 123 .

(الضراح – الضريح) ويفيض إليه الماء الغائر شوقاً ، وله قدرة خارقة ولكلامه كذلك ، ففيه شرف وحياة ، ومن ثم كان شبهه بالحسين ثم علي ثم موسى ثم يوشع ثم سليمان ثم نوح . ثمة قدسية شمولية ، ثمة رهب يكتنف الرغب .

ويجذب البيت الثاني والخمسون الانتباه بالشمس ، فتنةِ أبي العلاء . هل كان الممدوح مرة أخرى رمزاً للشمس وللحقيقة ؟ فكانت له بعض صفات الأنبياء وكانت له تلك القدرات الخارقة ، والمكانة السامقة ، والصفات الأسطورية ، كما كان من قبل شمساً مضيئةً (أنت كالشمس في الضياء) ؟

ما وجه (واحداً) في البيت الثاني عشر الذي يأتي عقب نهاية رؤية درامية في حركة البرق ؟ تأتي كلمة واحد كحركة ارتداد للذات على نفسها (رأيتك واحدا) هنا وفي أعلى درجات الوعي بالمأساة تنكشف للذات حركتها وتفردها ، فيتحد الفاعل والمفعول الرائي والمرئي ، ويصل الصراع الدرامي في هذه الرؤية عبر الوعي الحاد بالتجربة إلى ذروته ؛ فتعبر الذات عنه جوهر المحنة التي تواجهها والصراع بين العزم والحزم (أبرحت عزما) و(مثلك من رأى الرأي النجيحا) ثمة مفارقة أساسية تؤكد مدى التباين والانفصام داخل الذات ، الذات تعاني الفقد وترى الصواب ولكنها لا تستطيع أن تمضيه . فما ركوب الليل ؟ وما الفرس الكريم ؟

ويسري في القصيدة على مدى حركة البرق أو الخيل أو الناقة أو الممدوح/ النموذج جدل وحوار عميقان ، ويجسد هذه الحركة إيقاع المعنى على المستوى الرمزي وتشابكاته وتحولاته . ويعضد ذلك مظاهر صوتية كثيرة وثرية مثل : التصريع في البيت الأول : (مليحا – طليحا) والربط الصوتي والدلالي بين الذات والموضوع في (ألاح – مليحا – طليحا) . وفي الجناس (لمح – لموحا) وعلاقته بالدلالة وتأكيدها بل وإنتاج جانب منها . فاللمح فعل الذات وهو غي ، لذا كان الموضوع كذلك لا يثبت ضوءه فهو متغير وبعيد .

وكذلك الطباق والمفارقة في (سقما صحيحا) ودلالة التوتر واليأس الصرف ، وفي (أقام – يموا / فتنا – نقم / تغني – ينوح / الأين – مستريحا / شحيحا – فرط ري / أحي –

أبيحا / الحقيب – النطيحا / بوارحا – سنيحا / همن – خشين / وردت – ظمأ / هجن ، لعجمها – نسبا فصيحا / ظلام – وضوحا / أعلام رضوى – السفوحا / محبك – عدوك / لم يأت – أتاها / مستفيدا – مستميحا ..) وكذلك في الجناس مع التطبيق أو بدونه (تدر – تدر / القراح – القريحا / أجلا – أجلا) وأيضا التكرار في (الروح – روحا / تبوح – تبوحا / فاح – يفوح / حظ – حظنا / بزل – بازلها / شعرك – شعري / فكرك – الفكر / بسحرنا – سحر / رد يوحا – رددت يوحا..) .

كل هذه الطاقات الصوتية الدلالية من طباق وجناس وتكرار وتواز وغيرها ترفد القصيدة إيقاعها ، وتشكل بعض جمالياتها ، فهناك القافية بكل ما تمثله من ثراء إيقاعي عبر توازياتها الصوتية ، وتشابكاتها الدلالية . ودون الخوض في تحليل مفصل لدور القافية الإيقاعي والدلالي في هذه القصيدة ، أرى أن القافية مرتبطة بالقصيدة أشد الارتباط . وتمثل نبعا ثراً للإيقاع كما تمثل أيضاً مركزاً أو بؤرة دلالية في أحيان كثيرة بحكم موقعها المتميز ، إن على مستوى الدلالة أو الإيقاع . وهل ينفصل أحدهما عن الآخر ؟

المبحث الثاني

الغـــوابـــر

1. البنية الرمزية للدرع :

تشكل الدرع رمزاً فنياً ذا بنية رمزية متكاملة ، أحاول هنا أن أرصد أهم الملامح التصويرية لتلك البنية ، فمما يشيع في الدرعيات : علاقتها بالماء والصفاء والحية والسراب وعيون الجراد والقوة والمنعة وارتباطها الوثيق بالسيوف والرماح..، وأسماء الأعلام والحياة والموت فهي مجمع التناقض . ويلح أبو العلاء على هذه الملامح التي تتجاوب أصداؤها في الدرعيات كلها . ولنبدأ بكونها حومة المتناقضات ، فهذا شيء أساسي في بنيتها ويوجد في كل ملامحها كما سنرى .

وهنا أهتم بنص أبي العلاء على ذلك التناقض . فهي خشنة لينة :

8- وقد أغدو بها قضاء زغفا وتكفيني المهابة ما كفتني (ق75)

وهي لباس من الحديد في مقابل لباس الحرير :

35- إن في الدرع ملبد الغاب مذ كنـ ـت فكوني في الدرع ظبيا غريرا

36- غير أني لبست منها حديدا واستجادت من اللباس حريرا

التوتر بين الحديد والحرير بين الأسد والظبي . وهي روضة ولكنها روضة ذات خصوصية فهي أم الوغى وابنة اللظى كذلك :

8- وما هي إلا روضة سـدك بهـا ذباب حسام في السوابغ شادي (ق76)

9- على أنها أم الوغى وابنة اللظى وأخت الظبا في كل يوم جلاد

14- أرضعتها أم الشرار فما تعـ ـرف إلا أنيسة الليل ظيرا (ق80)

16- وهي أخت الجراز تدعو ويدعو والدا ما استعان إلا سعيرا

22- وتخال الشفار في وردها الـ ـكفار زاروا من الجحيم شفيرا

الدرع روض بها الحسام سدك . ثمة ملازمة بين الدرع والحسام والقين، لا تفوت المتأمل ، فهي أم الوغى والنار أمها ومرضعتها . النار تغذو الدرع وتزكيها وتطهرها . النار أصل في الدرع والسيف ، وهما أس الحرب . الدرع – إذن – روض الجحيم وجحيم الروض فهي نار وماء :

21- فلا قدم الأيام ألبس غلفقا جباها ولكن نار قين بها صال (ق81)

22- وتشبي شباة الرمح منها كأنها شبا وهي لينا من ترائب مكسال

27- عذبها الهالكي صانعها في جاحم من وقوده ضرم (ق83)

28- ينفر عنها ضب العزاة كما يهاب نقعا من بارد شبم

الدرع ماء لا يأسن على طول العهد ؛ فلا تصدأ ، وهي نار يصلى بها قينها . ولنتأمل خصوصية الإضافة والتداخل في التركيب اللغوي : (نار قين بها صال) ، كذلك قوله : (عذبها الهالكي) فهو يعذبها في (جاحم من وقوده ضرم) كما يصلى بها ! الدرع حرب والصراع محتدم بين الدرع وقينها . الدرع نار متأججة وماء ينفر عنه الضب . فهل يعد نفور الضب عنها شكاً في مائها الزائف ويقينها المشكوك ؟

الدرع كذلك مرة حلوة :

12- فلا يطمعك في الغمرات وردي فإني ربة المر الأجاج (ق77)

30- من الماذي كالآذي أردى عواسل غير طيبة المجاج

31- لا مرة الطعم ولا ملحة وكيف بالذوق ولم تعجم (ق78)

حركة الإثبات والنفي حركة بندولية أساسية في بنية الدرع ، الدرع كذلك دائمة الحركة ؛ فلا تقر ولا تثبت ، تنطوي الدرعيات على محاولة مضنية لملاحقة تلك الحركة الدءوب ، واكتناه حقيقة تلك الدرع المتلونة ، وسبر أغوارها ، ولكنها لم تعجم !

كذلك فإن الدرع تجمع بين الحر والبرد :

5- تولي الأيادي قرا حين تلمسها كأن ناجرها في اللمس شيبان (ق97)

5- أجيدت بمريخية النار فاغتدى لها زحلي في الغرائز قارس (ق98)

تجمع الدرع بين النار والماء كما السيف ، والحر والبرد وطباع زحل إلى طباع المريخ ، والصمت إلى الكلام ، فهي صموت نموم ، والحركة في السكون ؛

5- وكأنما رعب السيول تسرعت فمضت وقر الصفو من دفاعها (ق100)

الدرع ظاهرها مضيء لامع براق ساكن كأنه ماء وبرد .. بيد أن باطنها على غير ذلك ، فضوؤها يثني السمراء مطفأة السراج ، وماؤها سراب لا يروي من ظمأ ، وسكونها من شدة الحركة ، فهي بقية من سيل ، وبرده نار ..؛

6- سبرية في مسها بحرية بمياهها شمسية بشعاعها(ق100)

الدرع حياة وموت ، وحياتها موت ، ويقينها مشكوك :

6- آلى مضاعفها على مجتابها ألا يمور له دم مسفوك (ق89)

الدم مسفوك فكيف صيانته ؟ الدرع حماية وصيانة ولكن : (7- .. وما تغني عن القدر الأكنة ق103) ، فالحوادث كائنات . الدرع تارة هي الصيانة والحماية ، وتارة يقينها مشكوك ، تارة يلبسها ويضعها أخرى :

26- والفقير الوقير من هو مختا رعليها من السوام وقيرا (ق80)

27- أشعريها بديل كرتها المسـ ـك إذا ما الدعاء صار كريرا

28- واصبحيها البان الذكي فما أر ضى لعرضي من السليط ثجيرا

29- هي حصني يوم الهياج فعديـ ـها عن الآس واستعدى العبيرا

2- وذاك لباس ليس يجتابه الفتى فيختلف الأهواء في بعد شأوه (ق90)

5- فصائب لم يوفق في إصابته ومخطئ لك محروس على الخطأ (ق105)

6- كأن حسان ذا شعبين كنت له وقاية في زمان القحط والوبأ

7- فما وقيت وقد جاءته ميتته وأي نفس بذاك الخطب لم تجأ

8- لو كنت غرسا بناب الحجر واشتملت بذلك الغرس لم تعقر ولم تسأ

الدرع تصنع المجد ، ولكنها لا تقي من الموت ؛ وهل ينفع الثوب الرقيق لدى الحرب ؟ تنطوي الأبيات - بل الدرعيات كلها - على اشتباه عظيم ، ففي هذه الأبيات ريب في

حماية الدرع ووقايتها ولتأمل (فصائب لم يوفق في إصابته) و(ومخطئ لك محروس على الخطأ) فما علاقة الإصابة بالخطأ بالخطب ؟ ما علاقة (كنت وقاية) بـ (فما وقيت) ؟ وما دلالة (لو) في هذا السياق ؟! ها هي إحدى لحظات الوعي بالحقيقة :

23- لا يخلبنك بارق متلمع إن البروق تخون في تلماعها (ق100)

الدرع أغراس النتاج وهي أغراس المنون :

7- وتخال أغراس المنون أتت بها عند الحوادث أمهات رباعها (ق100)

الدرع تمنع ولا تمنع ، تقي ولا تقي ، ولكنها تبقى جديدة على قدمها :

18- غبرت لتبع الهمام ورأيه أن البقاء يكون من أتباعها (ق100)

6- ولم يلق في روع لها خوف صارم ففاز بطهر من تقى الموت روعها (ق101)

الدرع اشتباه عظيم وحومة لكل الصفات والأحوال والأطوار . التناقض والصراع الجدلي أساس الدرعيات ، فلا حاجة إلى استقصاء ذلك .

ولنر إلى علاقة الدرع الوثيقة بالماء غديراً وسيلاً ومزناً ..

1- على أم أني رأيتك لابسا قميصا يحاكي الماء إن لم يساوه (ق 90)

32- بيضاء من مطر الشتاء ولم تقل من صيف والقر ملء لفاعها (ق100)

9- وتحتي الكر إدماجا وفوقي نظير الكر في ديم وهتن (ق75)

3- رهنت قميصي عنده وهو فضلة من المزن يعلى ماؤها برماد (ق76)

24- مثل قطع الصبير زينها القيـ ـن فجاءت بريهن صبيرا (ق80)

12- كأنها كسف سماء هوى لحوبة خربها من سهيل (ق96)

1- من يشتريها وهي قضاء الذيل كأنها بقية من السيل (ق79)

الدرع ماء أو تحاكيه ، فهي غدير وسحاب وماء ومطر وسيل ..

5- وحوتها جائل على ظمأ في ناضب الماء غير ملتطم ! (ق83)

2- يحمل منها صاديا سابح مثل غدير الديمة المفعم (ق78)

2- وثوبي أضاة إن شكا الظماء تحتها كمي هياج فهو ظمآن سابح (ق91)

3- كمغتسل أعلى جمادى ببارد وما سجل ماء حين يفرغ سائح

7-ترى المرء فيها يحمل الماء جامدا وإما علاها مغفر فهو قامس (ق98)

7- لا يروعنك خدنها ظمأ الحرب رويدا فقد حملت غديرا (ق80)

6- فليست بمحض ترتغيه مبادرا ولا بغدير تبتغيه صوادي (ق76)

18- إن يرها ظمآن في مهمه يسألك منها جرعة للفم (ق78)

13- وغرت عيون الوحش فاقتربت لها صواد وباغي الورد منهن لاحس (ق98)

الماء – إذن – وهم وسراب غرار ، والدرع لا تحمي ولا تروي ، ولكن تغر من يغالط نفسه ! فلا يصل إليها حابس الحكيم ولا أهل عز كلهم متشاوس ! لا الخضوع ولا التغشمر ، ليس ثمة من ينال منها شيئاً ! لماذا كان ماء الدرع من الدموع ولماذا يعلى برماد ويطفو فوقه ريش لم يصم ؟ لماذا كان الماء جامدا ؟ ولماذا بقية من سيل ؟ وأي سيل ذلك الذي انفصلت عنه فكر الصفو من دفاعها ؟!

يتصل السراب بالماء اتصالاً وثيقاً ، وقد شاع في الدرعيات . لا يكون السراب إلا في القيظ:

2- تعد سراب القيظ والصيف والضحى وجنح الدجى لو أنه كان جارياً (ق92)

10- ألم تريها كالسراب لمعا (ق84)

11- تغر في القيظ العيون خدعا

17- عادتها أرمها ظبا وقنا من عهد عاد وأختها إرم (ق83)

18- تغرها غرة السراب نهى في ناجري النهار محتدم

19- أو عمل الكفر من يدين به في البعث إبان مجمع الأمم

للسراب دلالة عميقة على الفقد ، فما علاقة الفقد بـ (النهى) بـ (ناجري النهار محتدم) الدرعيات ! إشراقة وعي إنساني يشقى بالدرع من فقد مروع .

الدرع سراب في القيظ ، ولكنها كذلك تجري الآل في البرد والأفق غائم !

7- متى نثلث من عيبة يوم سبرة وقد غيم أفق أرسلت جاري الآل (ق81)
12- أضاة يروم السمهري ورودها فتشرقه منها بأبيض سلسال
24- كلائحة الباغي المضل رأى ضحى شذا من سراب في مهامه أغفال
25- جرور كما انسابت في الحزن حية إلى السهل فرت غب دجن وتهطال
26- فإن تحك ثوب الصل من بعد خلعه فقد كان من فرسانها صل أصلال

وهي سراب وليست بسراب فهي تقرب كلما اقتربت منها ، على عكس السراب إذ يبعد :

4- لاحت على غفلة كلائحة الـ ـمضل تدنو إذا السراب نأى(ق104)

الدرع غرارة خادعة (غرت عيون الوحش) و(غرت قطا مران) :

4- آلية ليست تغر سوى القنا المرهفات بمكرها وخداعها (ق100)
10- أمن الفتى من عند معقد زره حتى على القدمين ريع وساعها
11- بل تحسب العنقاء أو بنتا لها نبذت بها في الوكن يوم رجاعها
21- مجت على الأرض الغزالة ريقها فأقام بين وهودها وتلاعها
22- غرت قطا مران حتى عادها طمعا وحتف النفس في أطماعها
23- لا يخلبنك بارق متلمع إن البروق تخون في تلماعها
29- غرق الدبا في لجة لو نملة درجت بها لم يند بعض كراعها

وتتصل دلالة السراب على الخداع والمكر بالحية تارة والعنقاء أخرى . يقول :

14 - تحسبها تسعى وليست تسعى (ق84)
15- كما تسير في الكثيب الأفعى

وكذا بالثعلب :

22- رد شبا النبع وخيل نبعا
23-جيب على ذي السّمع يحكي السمعا
24- في الطّبع منها أن تظن طِبعا[1]
25- كالثغب أعطته السيول جزعا

(1) السمع : الصيت ، والسمع : ولد الذئب من الضبع ، والطّبع : النهر .

3- قديمة النسج ظن القوم أن عصا موسى كسته قميصا وهي ثعبان (ق97)
4- أو ذات أيلة أعطته ملابسها لحولها وإنساء الشعر قربان
34- كأن عصا موسى ليالي حولت له حية جادت بما الدهر لابس (ق98)

اهتم أبو العلاء كثيراً بالعودة إلى التراث والتواصل معه وتوظيفه ، من خلال التناص الرائع العميق معه . إذ كانت العودة متكررة إلى شخصيات بعينها، تجسد الضعف تارة والقوة أخرى ، فكانت الدرعيات حقلا واسعاً – في هذا الجانب– لتناص فني ، يؤسس للأزمة ويبحث عن جذورها . كانت العودة إلى شخصيات من مثل : الأنبياء – عليهم السلام – عودة مرهفة ، تنطلق من موقف يعي حقيقة الوجود الإنساني وطبيعة الصراع . يقول :

5- وتلك أضاة صانها المرء تبع وداود قين السابغات أذالها (ق95)
3- قديمة النسج ظن القوم أن عصا موسى كسته قميصا وهي ثعبان (ق97)
10- كان ابن آشى وحده قينا لها إذ كل قين مفاضة مأفوك (ق89)
11- فمضى وخلفها تئل كأنما حبك السماء قتيرها المحبوك
8- لاقى بها طالوت في حربه جالوت صدر الزمن الأقدم (ق78)
9- كانت لقابوس بني منذر إرث الملوك الشوس من جرهم
11- فلاح للناظر في سردها آثار داود ولم تظلم
12- لا تنتمي كبرا إلى سابر لكن إليها سابر ينتمي
61- كائنا للمنون هارون في البعـ ـث لموسى عونا له ووزيرا (ق80)
13- أمنتها نفسي علي فلم تمـ ـس كذات الغوير أمنت قصيرا
33- وقميصا يبلي الفتى كل عام وقميصاي أدركا أردشيرا
4- رأتها العيون الزرق في كيد وائل وعاينها في حرب ذبيان داحس (ق98)
6- وشاها ابن آشى جاهدا في شبابه إلى أن جلت عن مفرقيه الحنادس
9- ربيع حديد راع قيس بمثله ربيعا إلى أن خان والخل خالس
16- وماكان عن حوض الردى متقاعسا لو اجتابها يوم الهياج مقاعس

17- وأنعم قين فكره في قياسها بما أعجز النعمان حين يقايس

23- تنافس فيها المنذران ولم يكن ليعتب في أمثالها من ينافس

24- حبتها ملوك الفرس نصرا وقومه ونالت بها العلياء لخم وفارس

25- فما أدرمتها في الوقائع دارم ولا استافها في محبس الخيل حابس

26- نأى عامر عنها وأصحاب مذهب وما رب مياس بها الدهر مائس

27- ولكنها كانت لقابوس عدة تهم بها تحت الظلام القوابس

41- سليمية من كل قتر يحوطها قتير نبت عنه الغواني الأوانس

2- أراك ذخر سليسان وعدته لما تفكر في المغزى إلى سبأ (105)

16-ولو أنها أضحت لكعب حقيبة لأروى الفتى النمري من غير تسآل (81)

35- تنبأ داود برم دريسها فجاء بآى لم تشرف بإنزال

36- تنافس فيها المنذران ولم يرم عليها ابن آشى غير ذكر بإجمال

39- وخطى لها قبرا يضلون دونه كقبر لموسى ضله آل إسرال

40- ولا تدفنيها الجهر بل دفن فاطم ودفن ابن أروى لم يشيع بإعوال

26- رآه كهلان من معاقله في الحرب دون العبيد والخدم (ق83)

8- مثل وشي الوليد لانت وإن كا نت من الصنع مثل وشى حبيب (ق88)

19- غادرت في سيفي سلامةوالصمـ ـصام والقرطبي ردا فى ندوب

20- وحسام ابن ظالم صاحب الحـ ـيـة سمته كان با لمعلوب

ربما كانت العودة إلى الماضي وحكاياته – لونا من ألوان التشبث بالوجود، والثبات في وجه الفناء أو الاندفاع نحو النهاية . وقد تكون العودة تأكيداً للمأساة واتصال الحاضر بالماضي ، فالماضي يقين ، والحاضر على منواله سيكون . العودة إلى الماضي وانتقاء نماذج بعينها ، لا يدعم الأزمة ، بل إن هذا الرجوع الملحاح – بعد تأمل – يعد محاولة للخروج من الأزمة ، أو تأملها من خلال الوعي بها ، أو معالجتها ، ومن هذه الزاوية أظن أن أبا العلاء لم يكن ضد الحياة أو طبيعتها ، وإنما كان يبحث عن حقيقة ذلك الوجود الإنساني

المتناقض ، ويكشف عنه في روعته ، من خلال المفارقة ، التي تشمل الوجود بثرائه وتناقضاته ، فالوجود لا يقوم إلا على المفارقة . تأسيس الأزمة – إذن – أحد طرق الخروج منها ، والتغلب عليها ، من خلال مواجهتها وتأملها . الحياة أكثر إشراقا مع الوعي بحقيقتها .

لماذا الاهتمام بالدرع ؟ هذا سؤال يسير ، والإجابة عنه تقدم إشارة مهمة ، بيد أن الإجابة تحتاج إلى قراءة الدرعيات ، وهو ما حاولته ، فالدرع ملبس حرب، وهذا أمر مهم يستدعي طرفي الصراع ، السيوف والرماح وهي آلة حياة وآلة صيانة ، وحصانة ومنعة ووقاية وحماية في تلك الحرب ، ولكنها كذلك تتأبى على السيوف والرماح .. وهي بوصفها رمزاً فنيا لا يؤدي معناه الرمزي إلا مروراً بالمعاني المباشرة وأخذاً بأعناقها – كانت كل صفاتها ودلالاتها الأولية مستثمرةً في أداء ما ترمز إليه ، وما تبنينه من دلالات شعرية، ولذلك كان من المهم أن نأخذ دلالات الشعر المباشرة في الحسبان بوصفها مرحلة أولية . كذلك لا يفهم ما ترمي إليه الدرعيات بمعزل عن البحث المضني في مشكل الزمان والحياة والإنسان ، وهو ثلاثي أساسي في بنية الدرع . فالمحور الأساسي هو الإنسان مغترباً أو منعزلاً في حرب الحياة ، فالتوتر النفسي و القلق الوجودي هما أساس الصراع الإنساني ومأساته في تلك الدرعيات ، أو ذلك الوعي الشعري .

فالدرع أياً كان ما ترمز إليه هي حياة وموت ، هي ماء ونار ، ظلمة ونور ، قوة وشدة وخشونة ، وضعف ولين ورقة ، يقينها مشكوك ، فهي سراب، وشباب وشيب ، صموت نموم ، حصان بغي ، مرة الطعم (ربة المر الأجاج) حلوة كالماذي ، وهي ورد مأموم وهي أيضا ورد غير مورود ، وينفر عنها الضب إذ يحسبها ماء ، هي أمن ورعب ، هي كل ذلك مجتمعاً .

الدرع وثيقة الارتباط بوجود الذات وكينونتها . فهي رمز للنفس الإنسانية في مغامرة الوجود القاسية وهي حصن نفس تحيا حربا دائمة على مستويات مختلفة . الدرع صراع مع النفس ومع الأيام والدنيا . الدرع موقف نفسي يعيش على التناقض و المنازعة

والخصومة والصراع . فالدرع مجمع المتناقضات ، وهل تبعد حقيقة الإنسان أو الحياة عن التناقض ؟ تمثل الدرع مشقة الوعي ومأساة الإنسان . فالدرع اصطلاء بنار التناقض و الحرمان والشقاء ، وهي استراتيجية فارس يتبنى التناقض ومأساته في معرفته حقيقة الخدعة والوهم ، في عالم يقوم على الفقد والنقص الأساسي ! الدرع شرخ عميق في جدار الروح ، وهي غربة أو اغتراب وانفصال أو انشقاق . الدرع بحث عن الهوية وبحث عن الحقيقة والتئام الجرح .

الدرع وهم وسراب لا يكف الفارس عن السعي وراءه ومحاولة الكشف عن حقيقته ، وهي مع ذلك ليست فقدا كاملا بل هي فقد كبير من أجل كسب أكبر ، ولكن يظل الصراع محتدماً بين ما يفقده الإنسان وما يربحه ، الدارع لا يجد مفرا من التوحد الذي يصلى ناره ، ولا يجد مفراً من الصراع والخصومة والمنازلة التي لا يستطيع غيرها . الفارس لا يستطيع الرجوع وإن أراد ! ويشقى بالمواصلة ! هذه مأساة الإنسان الذي يعيش على الوعي بالتناقض و يلهث وراء السراب ويشقى بالوحدة والصراع ، يمنعه وعيه من متعة الحياة بلا خصومة . الدرع – إذن – استجارة من النار بالرمضاء ، من نار الحياة ، نار المجتمع ، نار .. برمضاء الوعي والاغتراب والحرمان والشقاء . أليست درعاً من نار ؟ هل يحتمي الإنسان من مكر الأيام وخداعها بدرع من جنسها ؟ هل يحتمي بنفسه من نفسه ؟ أم كان يرتاب في هذا الاحتماء و يسخر منه ؟ يرى الإنسان في الدرع عزة وستراً ووقاية من الرزايا ، وهو كذلك يقاسي هجيرها ، فالخسارة فادحة والتضحية كبيرة على عكس ما يظن الفارس نفسه الذي ألف سياج الحديد .

الدرع كذلك قدح زناد النفس وإشعال نارها ، فلا تكون النفس رائعة حقاً إلا بذلك القدح ، فأبو العلاء يجد نفسه إذ يسومها العذاب ، يجدها إذ يفقدها ، يعنفها فتنقاد له . من ثم فإن الدرع قدح وكشف وإثارة واحتلاب ونبش في أغوار النفس يمنعها لتعطيه ، ويقسو عليها لتحنو عليه لتعينه في حربه معها ومع المجتمع أو الحياة والأيام جميعا ، الدرع انفصال عن الجسد ورغباته ، وتعنيف بذلك الجسد ، ولكن ثم اتصال تسعى إلى تحقيقه

من وراء الاغتراب اتصال مع المثال وسمو على الحياة مغتربة و.. الدرع تقوم على انفصال عميق وتسعى إلى تحقيق نصر أو اتصال على مستوى آخر ، ولذلك كانت مجمع المتناقضات ، فهي نار وماء ، عذاب ورحمة ، إيمان بشيء وكفر بأشياء ، يأس وأمل ، فقد ووجد معاً ، فالدرع تشكيل فني لمفهوم الحياة وحقيقتها ، وخبرة بها وسرابها وخداعها ، وبحث عنها في الوقت ذاته .

الدرع صراع داخلي وخارجي ، صراع مع النفس والعقل والمجتمع والأيام والزمان .. الدرع هي وفاق الشقاق ، هي حقيقة المتناقضات ، ربما نظلم الفارس إذا عددناه خاسراً أو كاسباً . فالخسارة فادحة لا شك والمكسب كذلك كبير ، ولكن ليس هذا هو المهم . المهم هو ذلك الصراع بين ما يفقده وما يخسره . ما الذي خسره وما الذي اكتسبه ؟ هنا يتكشف لنا وجه الحقيقة . إن ما خسره الإنسان لم يكن ليكسبه ! وما كسبه لم يكن ليكسبه بغير هذه الطريق ، ومن دون هذه الخسارة الفادحة وتلك الحرب الشعواء . الخسارة و المكسب – إذن – مدخل غير صالح . فمن الصعب ترجيح كفة على أخرى ، ولكن لنتأمل هذه في ضوء تلك ، فلا ينفك ربح عن خسارة ، ولا خسارة عن ربح . بحث الفارس عن نفسه متوهجة عالية سامية متحررة من قيودها . ولكن المفارقة ما تزال تلاحقنا . فالإنسان لا يسمو ولا يتحرر من قيوده إلا بالوقوع في ربقة قيود أخرى ينسجها هو بيده ! هذا أحد أوجه المأساة .

الصعود يلازمه سقوط ، التحرر يكتنفه تقيد ، هذه هي حقيقة الإنسان الذي لا ينفك عن حريته التي لا تنفك عن القيود ! فالوجد بفقد و الحرية بقيد ، والراحة من التعب بالتعب ، فرب طلب للراحة أعقب نصباً ! الدرع لا تعرف حلاً وسطاً . لا توافق لديها . الدرع وعرة موحشة مليئة بالصعاب و العقبات ، وحمل النفس عليه يكون استجابة لدوافع أخرى أقوى وأشد قسوة . وما إن تحيط النار بالإنسان من كل جانب حتى يجد نفسه مدفوعاً إلى اختيار ما يألفه . ألفة ما يختاره .

لا تنفصل إذن معاناة الإنسان وشقاؤه بالدرع التي تمسك بها معتزاً - عن معاناته وشقائه بما فقده ، فهذا يفسر ذاك وينطوي كل منهما على الآخر ، فمن الحمام إلى الحمام ومن سجن إلى سجن ، ومن شقاء بالمجتمع إلى شقاء بالعزلة عنه ، ومن شقاء بالحياة إلى شقاء بالوعي بها وفقدها .. فالدرع تجمع بين آلام وهموم ومشقة وآمال وأحلام وانتصارات . وإن لم تتحقق فهي سراب ووهم . وماء وحياة ، ونار وسجن ، الدرع هي حقيقة الوعي بتناقض الحقيقة .

ذلك هو الثوب / القناع الذي يعز به الإنسان من وجهة نظر الفارس الدارع ، الانفصال عن مجتمع متردٍ وأناس صغار وحياة وضيعة تنطوي على نقص مروع وضعف مزر . وخصام دهر لا يهادن أحداً . التطهر من أشاء كثيرة كان وراء لبس القناع ، لكن ، على الرغم من مظاهر القوة والشجاعة ، وتوهم النصر ، تنم عن مأساة حقيقية ، وأزمة روح وجدت أسيرة قيود حديدية ، فأرادت مواجهة قيودها بتوهم الخلاص من أعبائها والبحث عن عالم بلا قيود ، فوجدت نفسها خارج العالم ، ولكنها ما تزال داخل القيود ! كانت المواجهة بالتخفي من المواجهة أو الانسحاب ربما توهمنا أن الدارع يبالغ في توهم القيود، ولكن الحقيقة أن القيود قاسية بالفعل والأزمة عميقة ، وأنه كان يبحث عن تحرر منها وربما زعمنا أن الدرعيات كلها لا تخرج عن تلك المحاولة أو المغامرة التي تقوم على صراع نفسي قاس ووحشة ورهق واغتراب . إنها مغامرة الوعي والكشف عن حقيقة العنقاء ، التي طالما أرقت الإنسان وروحه القلقة .

وعي النفس ووحشتها وعزلتها - إذن - محرك ومثير وباعث على تلك المغامرة الفذة ، ومحاولة تقييد الدرع الأبدة وتأملها واستكناه أعماقها وسبر أغوارها أو فض حلقاتها . فالدرعيات اشتغال على النفس وحقيقتها وعكوف على عالمها ، وتأمله واستبطانه ؛ فهي خبرة بالحياة وصعوباتها ، ولا تنفصل عن معالجة الحياة والمجتمع والأيام ، فهي انهمام بقضايا إنسانية ذاتية واجتماعية ووجودية . الدرع مساءلة جذرية ومراجعة شاملة لمفهوم الإنسان للحياة وحقيقتها ، وموقفه منها .

بين الدرع والسيوف والرماح والسهام . علاقة وطيدة . يقول :[1]

- وهي أخت الجراز تدعو ويدعو والدا ما استعان إلا سعيرا
- وما هي إلا روضة سدك بها ذباب حسام في السوابغ شادي

تحاول السيوف والرماح والسهام اختراقها دون أن تنال منها شيئا فهي تكف ضرب الكماة في كل هيج . ثمة امتناع مؤرق أرهق الشاعر وأرهق سيوفه ورماحه وسهامه وكل محاولاته طائشة والدرع سر لا يفض ، والمحاولات لا تقف عند حد ، بل تظل الدرع غرارة :[2]

12- كأنها والنصال تأخذها أضاة حزن تجاد بالديم
13- أو منهل طافت الحمام به فالريش طاف عليه لم يصم
16- ضاحكة بالسهام ساخرة بالرمح هزاءة من الخدم
17- عادتها أرمها ظبا وقنا من عهد عاد وأختها إرم
18- تغرها غرة السراب نهى في ناجري النهار محتدم
30- معابل الرمي عندها عبل ملقى وسحم النصال كالسحم
31- فهي فم العود بذهن به وهن شوك القتاد و السلم

هل كانت الدرع بحثاً عن حقيقة شيء ما ؟ هل كان الشاعر يستكشف ذلك السر بالسيف والرمح ؟ وما ذلك السر ؟ أهو النفس أم الحياة والدنيا والأيام ؟ وهل تختلف هذه الكلمات أو تفترق كثيرا ؟ تأمل تلك الصورة الرائعة :

12- كأنها والنصال تأخذها أضاة حزن تجاد بالديم

عجيب أمر أبي العلاء وأمر الدرع والنصال .. عجيب ذلك الإنسان . قلت إن السيوف مسوقة إلى الدرع مشغوفة بها ، والدرع هنا كذلك تستمد وجودها وقوتها من

(1) شروح سقط الزند : 4/ 1784 ، 4/ 1716 .
(2) شروح سقط الزند : 4/ 1853

تلك الرماح . لا تضطرم النار إلا بهذا اللقاء وبالصراع والاصطدام . ربما يضوى الإنسان بغير هذا الصراع ، ربما لا تكون للدرع أو السيف قيمة بمعزل أحدهما عن الآخر ، أو بعيدة عن هذا الإصرار أو التحدي الرائع . تدرع أبو العلاء تارة ووضع السرد تارة ، شقي أبو العلاء بتلك الدرع ، دارعاً وحاسراً. كان يسائل النفس الإنسانية ويشعل النار في كل شيء ، كان يبني ولا يفتأ يهدم ما ابتناه ، كان يثبت ودائما ما كان يرى النفي رائعاً ، كان يخط ويمحو ما خط في حيرة ووعي . وهذا شأن الوعي بالذات والمجتمع والحياة والحقيقة ، هذا شأن الوعي بالأزمة ، وربما كان كذلك أزمة الوعي .

2. مظاهر أزمة الروح:

بالنظر في حواشي الدرعيات وهي مما أثبته أبو العلاء بنفسه – نستطيع أن نلمح عدة دلالات لمظاهر الأزمة أهمها دلالة الفقد ، فالعلاقة وطيدة بين استراتيجية الدرع كنظام للفروسية وبين الفقد ، فالدرع – كما سبق – وكما رأى الدكتور ناصف – [1] هو إنسان فقد العالم فبحث عن المجد في تحقيق الانتصار عن الزمان بالمناوأة والخصومة ، أو الاستعلاء عليه ، وهي تقوم أساساً على الخصومة والمنازعة والصراع مع الذات أو العالم . الدرع جزء من استراتيجية الحرب التي تكتمل بالسيف والرمح ..

وبإلقاء نظرة سريعة على تلك العناوين نجد ذلك الصراع مع الفقد متجسداً؛ فمثلاً : قال على لسان رجل (ترك) لبس الدرع (لكبره) ، أو (رهن) درعه (فدفع) عنها ، أو ينادي على درع ، أو أسن (وضعف) عن لبس الدرع أو (سأل) أمه عن درع أبيه ، أو يخاطب امرأة (خانه) أبوها في درع ، أو نزل بامرأة (فساومته) درعها ، أو أعطى إبلاً و (أخذت منه) درع ، أو يذكر نساء (يحتجن) إلى لبس الدرع ، أو على لسان امرأة توصي ابنها بلبس الدرع ، (وترك) الزواج – بالدنيا – وقد وردت درعيتان فحسب على لسان الدرع تجملان دلالات القوة ، والثبات والصمود ، والتلون والانتصار على السيوف

---

(1) راجع : د. مصطفى ناصف : صوت الشاعر القديم ، ص 149 .

والرماح .. على الرغم من هجومهما الشرس فالهزيمة والفقد والعجز عن كشف حقيقة الروح أو ترويضها ، واليأس من قهرها – أساس موقف السيف الدرامي.

ولأن الدرع رمز يتشكل فيما يقلق بشأنه الشاعر أو الإنسان ويتأمل فيه ذلك القلق أو ذلك الهم – فهي (مشكل) . ولا يسهل فهمها بعيدا عن فكرة الصراع بين الإنسان والدهر (المعجز) فى حرب الحياة ؛ فهي تشتبه بالدهر والزمان والأيام والدنيا ، فكلها متداخلة فى نسج تلك الدرع (المشكل) .

فالدرعيات تعج بألفاظ مثل (سليمى – لبنى – لميس –أم دفر –الدهر – الزمان – الأيام – أخت نضلة – الحوادث – القدر – أغراس المنون) . ولا شك في علاقتها الوطيدة بالرؤية ، فهي محور الصراع دائماً ، وهي ما يمكن أن نستشفه من خلال بنية تلك الدرع العجب.

بنية الدرع الدلالية – إذن – هي بنية عقل متوثب متسائل أرهقه التفكير والتأمل في (مشكل) الزمان والدهر والأيام وعلاقتها بالإنسان وحياته ؛ فهي تعبر عن شيء غامض لا يقر ولا يثبت ، شيء أرق عقل أبي العلاء وأرهق تفكيره . الدرعيات محاولة لكتابة هذا الشيء الغرار ، فهي – بحق – تنتمي إلى ما سماه د. مصطفى ناصف (الصم الخوالد)[1] . والتي سماها أبو العلاء (الغوابر) . ومن الطريف أن الشيء الغابر هو الشيء الباقي والماضي جميعاً .

الدرع – إذن – تنطوي على ذلك الشيء الغامض : المجد والصراع مع الزمان ، فالمجد صناعة الزمان[2] ، ولأن الزمان غادر كانت الدرع غديراً ، ولأن الأيام سراب كانت سراباً وحرباء ، ولأن الزمان لا يثبت كانت الدرع لا تثبت ولا تقر ، فهي في حركة واضطراب مستمران ، (ربة الدملج ذات النميل) ولأن الدهر غامض مقنع دارع ، فعلى الإنسان أن يتدرع بدرع كدرعه ، ولأن الدهر .. كانت الدرع ..

---

(1) راجع : د. مصطفى ناصف : صوت الشاعر القديم ، ص 151 .

(2) راجع المرجع السابق ، ص 148 .

الدرع – إذن- درع الذات ، وهي – كذلك – تجسيد للقرن / الدهر الكمي بها، ومرآة لهذا القرن[1] الدرع فيها القرن وقرنه . الإنسان يتشبه بالدهر ويحتمي منه به ، بين الدرع والكمي بها خصومة هي سجنه وهي قيده وهي شكته وحمايته منها جميعاً .

لا شك أن أبا العلاء يصوغ قلقه وهمه وصرعه مع الزمان في تلك الدرع، ويسائل الوجود الإنساني في علاقته بذلك الزمان من خلال خصومته ومطاولته ، أو الاعتراف به . ذلك هو مرادي من أن الدرع (مشكل) فهي لا تكشف عن الدارع بقدر ما تكشف عن القرن الذي تحمى منه ، وتشكله معاً ، أو الصراع الكامل فيها. يخيل إلي أن أبا العلاء كان يبحث في مشكل الوجود الإنساني ويسائل النفس من خلال تشكيله الفني لذلك التمثال الرائع (الدارع) ومن خلال بحثه الشاق المضني عن الحقيقة في صراعه مع من لا كفاء له ، من ثم تمثل الدرعيات نشاط نفس موحشة وحركة عقل أضناه البحث ، وعصف به التساؤل وعز عليه الشفاء منه ، فظل يداوي الداء بالداء .

3. الأزمة واللغة :

لا شك أن اللغة كيان ووجود متكامل أو هي تحمل وجود الإنسان بكل دقائقه ويشكلها الإنسان بروحه ويتشكل بها ؛ فإن اللغة الفنية مدخل أساسي على معرفة الإنسان والكشف عن تلك الروح وطواياها وآفاقها . فاللغة بنية إنسانية يمكن أن نصل من خلالها إلى ما يودعه فيها الإنسان من روحه . وتكشف بنية الدرع عن روح تتعرض لرياح الأزمة ، وزلزالها ،روح تتخفى وتتوارى وراء اللغة وتوارى ضعفها بهذه القسوة

---

(1) يقول أبو العلاء في إحدى قصائد السقط : (الشروح : 4/ 1434) .

20- ولا يشوي حساب الدهر ورد له ورد من الدم كالمدام
29- ولا مبق إذا يسعى صدوعا غوائر في الدكادك و الإكام
33- مشى للوجه مجتابا قميصا كلأمة فارس يرمى بسلام
34- كدرع أحيحة الأوسي طالت عليه فهي تسحب في الرغام
35- نسيب معاشر ولدت عليهم دروعهم فصارت كاللزام

اللغوية أو الألفاظ الوحشية والغريبة الدرع ذاتها سياج من حديد يشكل سجنا لتلك الروح وهربا بشكل ما .

البطولة اليائسة هى ما يتبدى فى الدرعيات من وراء ذلك التعسف فى فرض القيود على مستوى اللغة والفكر والحياة . تعد القيود أو اختيار التحرك داخل القيود مظهرا من مظاهر أزمة الروح ، التي تتظاهر بالقدرة والقوة والمتانة، ولكنها تخفى وراء تلك البطولة يأسا وضعفا وهشاشة . القيود ضد التفتح والتواصل والالتقاء ، التقوقع أو التحصن ، أو الحدب على الذات من أهم مظاهر الانفصال الروحي .مم تتحصن الذات ؟ وما الذي دفعها إلى ذلك المنحنى الخطر ؟ أليست تلك هى مظاهر السقوط والمحنة أو المأزق الحضاري الذي تتعرض له الروح العربية ؟

تتخفى الروح وراء أقنعة كثيرة ، وتكشف الدرعيات عن قدر كبير من روح الإخفاق واليأس والتمرد أو الرفض ، ولكنها لم تصل إلى حد الثورة . فالثورة انكشاف وتوهج وتواصل واندفاع .. تحمل الدرعيات روح التناقض والانفصال والتنافر .. والمعاناة أو العكوف على الجرح والسخرية من الحياة والوضوح والألفة .

تشع الدرعيات قتامة وغربة واغتراباً ومشقة ، هناك أزمة بلا شك ، وفي الدرعيات أزمة عقل يشقى بالتناقض والقيود . مأزق الوعي بالأزمة والضعف والاغتراب . لماذا كان الرجوع إلى التراث والماضي كثيراً وأساسياً في الدرعيات، من خلال نماذج بعينها ؟ هل كان ثمة انفصال عن الحاضر أو اغتراب عن الحياة ؟

هل لاذت الروح إلى عالم خيالي تبنيه بإرادتها ينافس الحاضر والماضي معاً فكان على شاكلتها يموج بالتناقض والنزاع و التخفي والانفصال ، ويحمل ما تنوء به من هموم وآلام ؟ لماذا لم يكن للمستقبل والإشراق والأمل حظ في الدرعيات ؟ لم الحيات والسراب والليل والهم والخوف والفزع والتلون والخيانة واليأس والضعف والانعزال والخرباء والاصطلاء بالشمس ؟ لم النار في الماء والماء في النار ؟ لم كان كل هذا الاشتباه

الذي تموج به الدرعيات أو تموج به الروح ؟ ما دلالة ذلك الرهق العقلي ؟ لماذا تغترب الروح ويغترب العقل ويغترب الإنسان ؟ لماذا الاعتداد بالغموض والغريب غير المألوف ؟ لماذا الفتنة بالدرع والعكوف عليها ؟ لم الإمعان في البعد والانفصال والغوص بعيداً ؟ لم كانت إرادة الانفصال والانعزال والرغبة في الصراع والحرب الضروس ؟ أين التوافق والتواصل ؟ أين إرادة الحياة ؟ أكان ذلك استسلاماً ويأساً ؟ أم كان تعالياً على الحياة والأمل واليأس جميعاً ؟

7- أكلت منكبي سمر العوالي وحمل السابري أكل متني

ما الذي طرأ على الحياة العربية والحضارة والإنسان وهزها وغيرها ؟ هل ثمة انتكاسة حدثت ؟ هل كان المجتمع يتعرض لفتنة ؟ هل عصفت به رياح التفكك والتبدد ..؟ ما الذي عز على الإنسان معرفته ؟ ما ذلك السر الذي لا يفض؟ ما الذي عز على الإنسان استعادته ؟

تلبس الدرع طلباً للنجاة : [1]

- كم أرقمي من بني وائل موائل في حلة الأرقم

ولكن النجاة من أي شيء ؟ لعل النجاة من الدرع ذاتها !

- كبردة الأيم العروس ابتغى بها جلاء الحية الأيم !

فالدرع تلبس بغية جلاء شيء من جنسها (الأيم العروس) (الحية الأيم) ثمة تداخل واشتباه وجدل عميق بين الأيم والحية ، وبين العروس والأيم . يقول :[2]

- كهلال الحياة أو كقميص لهلال الحيات غير مجوب

فالدرع ماء الحياة يشتبه بهلال الحيات (هلال الحياة) (هلال الحيات) ، ألم يقل :

(- تصون أديما لا يجانس أصلها ويشقى بها من غيره ما تجانس)؟

---

(1) شروح سقط الزند : 4/ 1749 .

(2) المرجع السابق : 4/ 1883 .

ثمة مجانسة بينها وبين القرن الذي يشقى بها أو تشقى به ، تشتبه العلاقة بالدرع مع العلاقة بالحياة أو المجتمع أو الناس / الآخر ، فالقصيدة تبدأ بـ (كم أرقمي .. موائل ..) وتظل تتأمل الدرع ووصفها على مدى القصيدة كلها حتى تصل إلى :

37- أستـــغفر الله ولا أنـــدب الـــ أطـلال فـد الشخـص كالتـوأم
38- هـل سمسم فيمـا مضى عـالم بوقـفة العجـاج فـي سمسـم
39- ولسـت بالنـاسب غيـثا همـي إلـى السـماكين ولا المـرزم
40- وليـس غربـانى بمزجـورة مـا أنـا مـن ذي الخفـة الأسحم
41- مثـل خفـاف سـاد في قومـه على اجتياب الحسب المظلم
42- يـا ملـهم السخـل ولا أتبـع الـ أظـعان كالنخـل علـى ملـهم
43- ما لي حلس الربع كالميت بعـ ـد السبـع لم آسـف ولم أنـدم
44- علـى أنـاس مـن يعـاشرهم تعـوزه فـيهم عشـرة المكـرم

هنا يبدأ الكشف أو التواصل . فما تلك الأطلال وما تلك الأظعان ؟ وما علاقتها بالحياة أو المجتمع ، بفذ وتوأم ، أو بالتوحد والاندماج ؟ وما علاقة ذلك كله بالدرع التي استغرقت القصيدة واستنفدتها ؟ ولماذا بعد ستة وثلاثين بيتاً يقـول : (أستغفر الله ..) ؟ فمم يستغفر ؟ وما علاقة الاستغفار بتقوى الله تعالى (فليتق الله..) وبـ (كـم أرقمـي .. موائل) وبـ (لو أمسكت ما زل ..) ؟ ما الشيء الذي امتنع على أبى العـلاء ؛ فـأغرم بـ(لو) وعاد يستغفر من التعلق بالمفتقد الممتنـع أو الأطـلال ؟ مـا علاقـة قولـه : (ولا أندب الأطلال) بقوله :

(مـا لـي حلـس الربـع كالميـت بعـ ـد السبع لم آسف ولم أنـدم)
(علـى أنـاس مـن يعـاشرهم تعـوزه فـيهم عشـرة المكـرم)

وبقولـه :

(و هي إذا الموت بدا معلما نعم دثـار الفارس المعلم) ؟

ما علاقة لزوم الربع (كالميت) بالتدثر بالدرع ؟ وما علاقة النفي : (لا أندب..) بـ (لم آسف ولم أندم) ؟ وما علاقة كل ذلك بـ (أناس) ؟ لماذا الإلحاح على نفي الندب والندم والأسف ؟ ما علاقة قوله : (لا أندب .. وليس غرباني.. لا أتبع الأظعان .. حلس الربع ..) ؟ هل كان أبو العلاء يسخر من الورد والمتزاحمين عليه من حيث ينفي التحسر وندب الأطلال أم كان يتحسر ويندب الأطلال ؟ (ما لي حلس الربع كالميت ..) .

كذلك ما علاقة قوله :

(وحاجب لو حجبت شخصه ليمس في المنة من زهدم)
(تزاحم الزرق على وردها تزاحم الورد على زمزم)
(فلينفر الهندي عن مورد منظره كاللجة العيلم)
(هازئة بالبيض أرجاؤها ساخرة الأثناء بالأسهم)
(لو أمسكت مازل عن سردها لأبصر الدارع كالشيهم)

بقوله : (ما لي حلس الربع كالميت ..) (على أناس ..) ما هذا الحجب وذلك التزاحم ؟ ما ذلك النفور والتناقض والسخر ؟ عم يبحث أبو العلاء وإلام يدعونا ؟ لماذا كان السيف نابياً ؟ ولماذا ينفر عن الدرع ؟ لم كانت الدرع ورداً (منظره) كاللجة ؟ ولماذا (منظره) ماذا عن جوهره ؟ ما هذا الورد الذي يتزاحم عليه ؟ وما دلالة التزاحم ؟ ألا يشي التزاحم بشدة الشوق والظمأ ، ومن ثم شدة المعاناة إذ يصدر أبو العلاء عنها ؟ ما دلالة الجزم والقطع والانفصال في (الأجذم) وفي موقف (أبي ضمضم) وترك المحاماة والخوف من أبي جهضم ؟ ماذا يعني أمن الدرع ؟ ولماذا (الكف والساعد والمعصم) ؟ ما علاقة قوله : (ولا أندب الأطلال..) بقوله : (وآثرت أخلاق السرابيل) ؟

العلاقة بين الفذ والتوأم علاقة عميقة مؤرقة ، ولعلها تتداخل مع العلاقة ببني الأرقم وبني وائل . هل كان أبو العلاء يصارع الوحدة والوحشة ويجاهد نفسه إذ قال : أستغفر الله ..؟ أكان أبو العلاء يعاني انتكاسة في موقفه ؛ ولذا يستغفر؟ هل كان نادماً

أو آسفاً أو نادباً ..؟ هل كان يصارع الموت ؟ يحمل فعل الاستغفار دلالة المأساة وربما السخرية من خلال المفارقة فما يستغفر الله من أجله هو سبب شقائه وعليه ذاته حسرته وندمه . ترتبط الأطلال بـ (التوأم) والدرع ، بيد أنه لا يندب الأطلال ؛ ففذ الشخص كالتوأم ! ثمة صراع واشتباه بين التوحد والاندماج ، صار الاجتماع كالانفصال ، كلاهما موت (الموت المعلم – حلس الربع كالميت) فهل الدرع حقيقة للنجاة ؟ هل صارت الحياة كالموت ؟ هل الكل باطل وقبض الريح ؟ تتكشف القصيدة عن مساءلة عميقة للوجود الإنساني ، وعن لحظة وعي عميقة بمأساته . فالفذ كالتوأم والعزلة كغيرها والمجتمع عزلة أخرى ، كان بصير القوم أعمى والآن جليسهم منعزل منفصل ، وكالميت الحي ! ثمة اشتباه عميق ينم عن أزمة شديدة .

أليس التوحد والتفرد والانعزال هو ما يشكل تلك العلاقات الضمنية التي تنظم القصيدة وتؤسس لرؤيتها ؟ إن الانفصال عميق والجرح غائر . الانتماء قضية :

– لا تنتمي كبرا إلى سابر لكن إليها سابر ينتمي

يتجادل الانتماء مع الكبر ، فلا اتفاق بينهما . وهناك محاولة لتقليب الانتماء والكبر. وربما للبحث عن شيء آخر مختلف عن هذا وذاك للخروج العجمة والحبسة واللجة والعيلم ، وعجم الدرع :

– مالي حلس الربع كالميت بعـ ـد السبع لم آسف ولم أندم